جامعة اليرموك
قسم التاريخ
كلية الآداب

السلطان قانصوه الغوري ونهاية دولة المماليك

٩٠٦-٩٢٣هـ / ١٥٠٠-١٥١٧م

إعـــداد الطالبة

هنادي زعل مسعود الهنداوي

بكالوريوس تاريخ ١٩٩٦م

إشراف

الأستاذ الدكتور يوسف حسن غوانمة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السلطان قانصوه الغوري ونهاية دولة المماليك

٩٠٦-٩٢٣هـ / ١٥٠٠-١٥١٧م

إعـــداد الطالبة

هنادي زعل مسعود الهنداوي

بكالوريوس تاريخ ١٩٩٦م

اشراف

الاستاذ الدكتور يوسف حسن غوانمة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب، جامعة اليرموك

لجنة المناقشة :

١. أ. د. يوسف حسن غوانمة. رئيساً ومشرفاً

٢. د. سليمان عبد خرابشة. عضواً

٣. د. نعمان محمود جبران. عضواً

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الإهداء

إلى والدي ووالدتي ينبوع حياتي ...

وأصل وجودي

إلى زوجي رفيق دربي ...

إلى ابني امتداد وجودي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة الاختصارات:

ص	:	صفحة.
ج	:	جزء.
مج	:	مجلد.
ق	:	قسم.
ت	:	توفي.
ط	:	طبعة.
هـ	:	هجري.
م	:	ميلادي.
(د. م)	:	دون مكان نشر.
(د. ت)	:	دون تاريخ نشر.
ورقة	:	خاصة بالمخطوطات.

P. : Page.

Vol. : Volume

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحـة
الإهداء	ب
قائمة الاختصارات العربية	ت
الفهرس	ث
المقدمة	١
الفصل الأول : قانصوه الغوري ووصوله إلى السلطنة	٤
– نسبه وكنيته	٥
– مولده	٥
– نشأته	٨
– توليه السلطنة	١١
– صفاته	١٣
– ثقافته	١٤
– زوجاته	١٦
– أولاده	١٧
– ألعابه	١٧
الفصل الثاني : الأحوال الداخلية في مصر والشام في عهد قانصوه الغوري	١٩
– نظام الإقطاع الحربي وأثره على الفلاحين في مصر والشام	٢٠
– المؤسسة العسكرية	٢٥
– فتن أمراء المماليك وجلبانهم	٣٨
– الأعراب في مصر والشام وعلاقتهم بالدولة	٤١
– فئات المجتمع في مصر والشام وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة	٥٣
الفصـــل الثالـــث : علاقـــات المماليـــك مع الجزيرة العربية والقوى الإسلامية المحيطة بالدولة في عهد قانصوه الغوري	٦٦
أ. العلاقة مع الحجاز	٦٧
ب. العلاقة مع اليمن	٦٩
– العلاقات مع كل من :	
١. الإمارات التركمانية	٧٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢. الدولة العثمانية ٧٧
٣. الهند ٨٢
٤. الصفويين في فارس ٨٢
الفصل الرابع : علاقة المماليك مع القوى المسيحية في عهد قانصوه الغوري ٩١
- العلاقة مع الحبشة ٩٢
- العلاقة مع البندقية ٩٤
- العلاقة مع فرنسا ٩٩
- العلاقة مع الاسبان ١٠١
- العلاقة مع البابوية في روما وفرسان الاسبتارية ١٠٢
- العلاقة مع البرتغال ١٠٥
الفصل الخامس : نهاية دولة المماليك ١١١
- الظروف الداخلية في دولة المماليك والتي سارعت على نهايتها ١١٢
١. التنافس على السلطنة ١١٢
٢. انحلال النظام العسكري المملوكي ١١٣
٣. إفلاس الدولة وكثرة المصادرات والضرائب ١١٥
٤. انتشار الأوبئة والمجاعات ١١٩
- مقدمات الحرب بين المماليك والعثمانيين ١٢١
- معركة مرج دابق "الأسباب والنتائج" ١٢٣
- تقدم القوات العثمانية إلى دمشق والقاهرة ١٢٩
- سليم الأول في القاهرة وسقوط دولة المماليك ونقل الخلافة إلى استنبول ١٣٢
الخاتمة ١٣٧
مصادر البحث ومراجعه ١٣٩
الملخص باللغة العربية ١٦٢
الملخص باللغة الإنجليزية ١٦٤

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمـــــة

أهمية البحث ومنهج الدراسة

شـــهد عهد السلطان قانصوه الغوري تغيرات كبيرة في العالم من حوله، فهناك اكتشاف العـــالم الجديـــد، وبداية الاكتشافات الجغرافية ممثلة برأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند والشرق الأقصى. فقد امتد حكم السلطان الغوري ما بين (٩٠٦- ٩٢٣هـــ/ ١٥٠٠- ١٥١٧م) وهـــي فـــترة طويلـــة مقارنة مع من سبقه من السلاطين المماليك الجراكسة، ولم يكد السلطان الغوري يتولى السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوي رغم تجاوزه الستين من عمره، فقد عمل على إعادة الأمن والاستقرار في كافة أرجاء الدولة.

واجه السلطان الغوري في بداية حكمه العديد من الصعوبات الداخلية، وكانت أولى هذه الصعوبات وأهمها على الإطلاق تلك الضائقة المالية، التي مرت بها الدولة المملوكية وأدت إلى إفلاس خزانتها، مما دفع السلطان إلى إتباع أساليب تعسفية لجمع الأموال.

ومـــن المشـــاكل والصـــعوبات الأخـــرى التـــي واجههـــا السلطان قانصوه، تلك الفتن والمـــنازعات بيـــن أمـــراء المماليك وجلبانهم، بالإضافة إلى كثرة غارات البدو على الأراضي الزراعية.

أمـــا بالنســـبة للعلاقات الخارجية فقد كان لدولة المماليك في عهد قانصوه، علاقات مع العثمانييـــن، حيـــث تميزت هذه العلاقة بالمودة حيناً والعداء حيناً آخر، والواقع أن الصدام بين المماليـــك والعثمانييـــن كـــان أمراً طبيعياً بين أكبر قوتين تتزعمان العالم الإسلامي في الشرق الإسلامي. وكذلك ارتبطت دولة المماليك بعلاقات تجارية مع الهند، حيث كانت تستورد التوابل والـــبهارات ...الـــخ مـــن الهند والصين وارتبطت الدولة بعلاقات مع الصفويين في إيران وقد اتســـمت هـــذه العلاقـــات بالعدائية تارة لاختلاف المذاهب بينها، وبالعلاقات الودية تارة أخرى

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وخصوصـــاً بعـــد هـــزيمة الصفويين في معركة جالديران أمام العثمانيين. أضف إلى ذلك تلك العلاقـــات التي ارتبطت بها دولة المماليك مع الدويلات الإيطالية، وأهمها تحديداً البندقية، حيث كانت البندقية هي العميل الأول لتجارة التوابل، وتأثرت بتحول التجارة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ولذلك اتحدت مع دولة المماليك لانتزاع السيادة من البرتغال. وفي دراستنا هذه سنلقي الضوء على أوضاع السلطنة المملوكية الداخلية والخارجية، في عهد السلطان الغوري في الفترة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م - ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م).

وتتمثل أسباب اختيار الموضوع للتعرف على الأمور التالية:

١. الوسائل والسبل التي انتهجها الغوري للنهوض باقتصاد بلاده.
٢. فـــئات المجـــتمع المصري والشامي في عهد دولة المماليك الثانية، ونظرة الدولة لها، ومقدار ما تتمتع به هذه الفئات من حقوق وامتيازات.
٣. دوافع النزاع المملوكي البرتغالي.
٤. ردة فعـــل المصريين والشاميين على انتصار العثمانيين على المماليك واستلامهم الحكم وإنهاء دولة المماليك، وكيفية حدوث ذلك.

أما بالنسبة لمنهج الدراسة فقد قسمت الموضوع إلى مقدمة، وخمسة فصول وخاتمة.

تناولت في المقدمة أهمية البحث ومنهج الدراسة.

أمـــا الفصـــل الأول فكان دراسة تمهيدية للسلطان قانصوه الغوري، عن نسبه وكنيته، ومولـــده، ونشأته، وتوليته السلطنة، ثم تعرضت إلى صفاته وثقافته، وزوجاته، وأولاده، وصولاً إلى ألعابه كالفروسية والصيد وغيرها.

أمـــا الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن الأحوال الداخلية في مصر وبلاد الشام في عهـــد قانصـــوه الغـــوري، تحدثـــت فيه عن نظام الإقطاع الحربي وأثره على الفلاحين، وعن

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المؤسسة العسكرية وفتن أمراء المماليك وجلبانهم، وأنهيته بالحديث عن فئات المجتمع في مصر والشام وعلاقتها بالسلطة الحاكمة.

وجعلت الفصل الثالث للحديث عن علاقات المماليك مع الجزيرة العربية والقوى الإسلامية المحيطة بالدولة المملوكية في عهد قانصوه الغوري، وقد تناولت فيه علاقة المماليك مع كل من: الحجاز واليمن، والإمارات التركمانية، والدولة العثمانية، والهند، والصفويين في فارس.

أما الفصل الرابع فقد خصصته للحديث عن علاقة المماليك مع القوى المسيحية في عهد قانصوه الغوري، تناولت فيه بالتفصيل علاقات المماليك مع كل من: الحبشة، والبندقية، وفرنسا، والاسبان، والبابوية في روما، والبرتغاليين.

وتناولت في الفصل الخامس الحديث عن نهاية دولة المماليك، مبيناً الأحوال الداخلية في دولة المماليك والتي سارعت على نهايتها، ومقدمات الحرب بين المماليك والعثمانيين، ومعركة مرج دابق "الأسباب والنتائج" وتقدم القوات العثمانية إلى دمشق والقاهرة، وأنهيته بالحديث عن السلطان سليم الأول في القاهرة وسقوط دولة المماليك ونقل الخلافة إلى استنبول.

وفي نهاية الدراسة أجملت النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

وأخيراً فإني لا أدعي بأن الموضوع قد أخذ حقه في الدراسة والبحث، فلا شك أن هناك جوانب لم تستطع الباحثة تغطيتها أو الوصول إلى مصادرها، وهذا العمل إنما هو جهد طالبة علم تخطو خطواتها الأولى على طريق البحث العلمي، راجية أن تتاح الفرصة لغيري لإتمام النقص الذي لم أستطع عمله.

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل وعظيم الامتنان والعرفان لأستاذي الأستاذ الدكتور يوسف غوانمة الذي كان لتوجيهاته الأثر الكبير في إخراج هذا البحث بهذا الشكل العلمي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول

قانصوه الغوري ووصوله إلى السلطنة

- نسبه وكنيته
- مولده
- نشأته
- توليه السلطنة
- صفاته
- ثقافته
- زوجاته
- أولاده
- ألعابه

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **نسبه وكنيته.**

هـو قانصـوه بـن عبد الله[1] الجركسي[2]، السلطان الملك الأشرفي[3]، سيف الدين وكنيته أبو النصر[4]، المشهور بالغوري[5]، وسماه ابن طولون بالجندب، وجعل قانصوه لقباً له[6].

- **مولده.**

لم تذكر الكثير من المصادر التاريخية والأدبية تاريخ مولد قانصوه الغوري، بينما أشارت بعض المصادر إلى أن تاريخ مولده كان في حدود الخمسين وثمانمئة (٨٥٠هـ/١٤٤٦م)[7].

---

(1) الغـزيّ، نجم الدين (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، حققه وضبط نصه جبرائـيل سـليمان جـبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت)، ج١، ص ٢٩٤؛ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربـي فـي دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت)، ج٨، ص ١١٣؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ج٥، ص ١٨٧.

(2) الملطـي، عـبد الباسط بن خليل بن شاهين (ت ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين نمر الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٥٥؛ ابن إياس، أبـو الـبركات محمـد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، كتب لها المقدمـة والفهـارس محمـد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م، ج٤، ص٢؛ الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٤، الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

(3) ابـن أجـا، محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلـة الأمـير يشبك بن محمد الدوادار، صنعة محمد أحمد دهمان، دار الفكر، (د.ت)، ص٢١١؛ الملطي، نزهة الأساطين، ص١٥٥.

- الأشرفي: نسبة إلى الأشرف قايتباي، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢.

(4) الملطـي، نزهة الأساطين، ص١٥٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

(5) الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٤، الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

- الغـوري: نسـبة إلى طبقة الغور إحدى الطبقات التي كانت في مصر معدة لتعليم المؤدبين، انظر: الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

(6) الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٤؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

(7) الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٤؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

توفي قانصوه الغوري في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، إثـر هزيمته في معركة مرج دابق التي دارت بينه وبين السلطان سليم الأول بن أبي يزيد بن محمد بن مراد بن عثمان[١].

وكان عمره نحو اثنان وسبعين سنة[٢].

وقد اختلفت الروايات وكثرت الإشاعات حول الطريقة التي مات بها السلطان الغوري، فبعضها ذكر أنه أصيب بفالج أودى بحياته أثر سماعه باقتراب جيش العثمانيين منه[٣]، وروايات أخـرى ذكرت أنه من شدة غضب السلطان على نتيجة معركة مرج دابق (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، التـي انتهـت بهزيمته، ابتلع فص ماس كان معه، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود وسقط عن

---

(١) ابـن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٧١؛ الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٠٨- ٢١١؛ رشدي، راسم، مصر والشراكسة، دار صوت النازيين، (د.م)، (د.ت)، ص٩٦.

- مـرج دابـق: دابـق قـرية قرب حلب من أعمال عزاز، انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، مج٢، ص٤١٦؛ ابن زنبل، أحمد الرمال (ت ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢)، آخرة المماليك واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، (د.م)، (د.ت)، ص٢٦.

- السلطان سليم: هو السلطان سليم ابن أبي يزيد ابن محمد بن مراد، ولد بمدينة آماسية سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، جلـس على كرسي السلطنة وعمره ست وأربعون سنة، وعندما استقر بالملك بدأ بقتال الشاه إسماعيل الصـوفي وانتصـر علـيه في معركة جالديران، ثم ساق عسكراً كبيراً والتقى بسلطان الشراكسة قانصوه الغـوري فـي معـركة مرج دابق وانتهى الأمر إليه. فملك حلب ودمشق ثم توجه إلى مصر. فالتقى مع السلطان طومان في معركة الريدانية، واستطاع الانتصار عليه والسيطرة على مصر، توفي السلطان سليم في سنة (٩٢٦هـ/ ١٥١٩م)، انظر: الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٠٨- ٢١١؛ الصرفي، رزق الله منقريوس (ت بعد ١٣٢٦هـ/ بعد ١٩٠٨م)، تاريخ دول الإسلام، الفجالة، مصر، ١٩٠٨م، ج٣، ص١١٢-١١٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٧٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فرســـه ومات من وقته[1]، في حين ذكر بعضهم الآخر أن الغوري أغمي عليه فسقط عن ظهر فرسه صريعاً على الأرض[2].

ذكـــر أن جـــثة الســـلطان لم تظهر بين جثث القتلى في أرض المعركة، واختفت كلمح البصـــر، وتفسير ذلك كما ذكرته بعض المصادر أن رأس السلطان قطع ونقل إلى استنبول. أما جثته فقيل أنها دفنت عند الشيخ داوود بأرض دابق، وقيل حملت إلى حلب ودفنت بتربة له بناها عـــندما كان متقلداً للحجوبية الكبرى في حلب[3]، وقيل كذلك أن أحد أمراء السلطان أشار على بقية الأمراء بأن يقطعوا رأس السلطان ويرموا بها، لأن الجثة بلا رأس لا يعرفها أحد[4]. بينما ذكر بعضهم الآخر أنه لا يعرف للغوري مكان قبر[5]، وعلى ما يبدو أن السلطان الغوري نتيجة تأثـــره بنهاية المعركة (مرج دابق) ابتلع فص ماس، فأغمي عليه وسقط صريعاً على الأرض، وعندها أجمع أمراءه فيما بينهم على قطع رأسه حتى لا يعرف أحد جثته.

---

(1) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٥١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٧٠.

(2) الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٧.

(3) ابـــن طولـــون، شـــمس الدين (ت ٩٥٣هـــ/ ١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، حققه وكتب له المقدمة والحواشي محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م، ج٢، ص٢٤.

- الحاجـــب: وظيفة من أرباب السيوف يقوم صاحبها بالأنصاف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند، انظر: القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٢٠هـــ/ ١٤١٧م)، صـــبح الأعشـــى فـــي صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصـــرية العامـــة للتأليـــف والترجمة والطباعة والنشر، (د.ت)، ج٤، ص١٩؛ المقريزي، تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥هـــ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي، تحقيق محمد زيـــنهم، مديحـــه الشـــرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م، ج٣، ص٨٠، البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص٩٧.

(4) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٣.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

- **نشأته.**

لـــم تخـــبرنا المصادر التاريخية عن نشأة الغوري لأنه أحد المماليك الأجلاب[1]، أي أنه جلـــب إلـــى مصر كبير السن وكان ذلك سنة (٨٣٩هـــ/ ١٤٣٥م)[2]، لذا لم ترد أية إشارة عن طفولـــته أو بداية شبابه، فهذه الفترة من حياته مجهولة ولكن يمكن التعرف على بعض منها بعد قدومـــه إلى مصر، وذلك من خلال تدرجه في المناصب الإدارية والعسكرية في دولة المماليك الثانية.

ابتدأ الغوري حياته كسائر الأرقاء والجنود، فقد كان أحد مماليك السلطان الأشرف قايتباي، وكانت معرفته بالأمور بسيطة ومحدودة، وقد أعتقه قايتباي وبذلك أصبح أحد المماليك الأشرفية نسبة إلى سيّده الأشرف قايتباي[3]، وقد قلّده قايتباي العديد من المناصب.

أمـــا المناصب التي تقلدها الغوري في عهد السلطان قانبياي فهي منصب الجمدارية ثم أصبح خاصكياً، ثم رقي وأصبح كاشفاً للوجه القبلي سنة (٨٨٦هـــ/ ١٤٨١م)، وبعد ذلك أنعـــم

---

(١) الأجلاب: هم المماليك الذين يجلبون من بلادهم كباراً، وكانوا يعملون هناك بالمهن المختلفة، ولم يكونوا على دراية تامة بالفروسية. وقد أساءوا إلى الناس وظلموا وجاروا وكثرت شرورهم في مصر وبلاد الشام، انظر: غوانمـــة، يوســـف درويش، التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، وزارة الثقافة، عمـــان، ١٩٧٩م، ص٢٨٠، قاســـم، قاسم عبده، " بعض مظاهر الحياة اليومية"، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ص٥١.

- قايتـــباي: هو أبو النصر بن عبد الله السلطان الملك الأشرف الجركسي الظاهري، نسبة إلى الظاهر جقمق، ولـــد سنة (٨٢٦هـــ/ ١٤٢٢م)، بويع له بالسلطنة يوم الاثنين سادس شهر رجب سنة (٨٧٢هـــ/ ١٤٦٧م)، وعمّر بالقدس الشريف مدرسة، ورمم الجامع الأموي، وعمر مدرسة بغزة وكانت وفاته ليلة الاثنين ١٨/ ذي القعدة سنة (٩٠١هـــ/ ١٤٩٥م)، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٣- ٤.

(٢) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـــ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ج١٦، ص٣٩٥.

(٣) الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٧- ٣٠٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

عليه بلقب أمير عشرة سنة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م)[١]. وبعد ذلك كلفه السلطان قايتباي قيادة بعض التجاريد المرسلة إلى البلاد الحلبية سنة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) لمحاربة علي دولات بن دلغادر[٢]، ثم عين نائباً للسلطان في مدينة طرسوس[٣]، لأن طرسوس كانت تتبع للمماليك تارة، وللعثمانيين تارة أخرى، وذلك بسبب الصراع والنزاع الذي حدث بين قايتباي والسلطان العثماني بايزيد الثاني[٤]، ثم تولى الحجوبية في حلب سنة (٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م)، ثم تولى نيابة ملطية[٥].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢، ج٣، ص٢٠٧.

- الجمدار: هو الذي يعاون السلطان أو الأمير في ارتداء ثيابه، وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين أحدهما جامـا: ومعناه الثوب، والثاني دار: ومعناه ممسك فيكون ممسك الثوب، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٩٥؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٩٠؛ شتا، إبراهيم الدسوقي، المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢م، ج١، ص٨١٣.
- الخاصكية: ومفردها خاصكي، وهم جماعة من المماليك السلطانية ممن دخلوا في خدمة السلطان صغاراً، يدخلون عليه بدون إذن ويلازمونه بخلواته، ويسوقون المحمل الشريف، ويتميزون في مركوبهم وملبوسهم وحملهم لسيوفهم في الخدمة، انظر: الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٩٣هـ/ ١٤٦٨م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ص٩٧؛ دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص٦٦.
- الكاشف: من وظائف أرباب السيوف، ويحكم على جميع البلاد التي يتولى كشفها، فيجتمع إلى الأمراء ويمد السماط، ويحضره القضاة وتقرأ القصص بين يديه، أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٥.
- أمير عشرة: هو الأمير الذي تكون تحت إمرته عشرة مماليك خاصة به، وربما يكون تحت إمرته أكثر من ذلك العدد كعشرين مثلاً، وهذه الطبقة لا ضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٥؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٤٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٠٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢.

- طرسوس: هي مدينة مشهورة على سواحل بحر الشام، كانت ثغراً من ناحية بلاد الروم، وهي آخر أعمال دمشق وأول أعمال حمص، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٨؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه البارون ماك كوكين ديسلان، الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٥٠م، ص٢٤٩.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٠٦- ٢٠٧.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الرتب العسكرية التي شغلها الغوري في عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباي فهي: أمـير مائـة ومقدم ألف، ثم أصبح رأس نوبة النوب أيام جان بلاط وبقي بها أيام سلطنة الملك الظاهر قانصوه خال الملك الناصر في ذي القعدة سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)[١].

ومـن المهـام التـي كلّـف بها الغوري هو أن السلطان جان بلاط. قلده كأحد القادة في التجريدة التي أرسلت لتأديب الأمير قصروه نائب الشام عندما أعلن العصيان عليه.

كـان الغوري في هذه المهمة العسكرية بصحبة الأمير طومان باي قائد التجريدة. إلا أن هـذا الأمـير تآمر مع الجند والقادة الذين كانوا برفقته ومن بينهم الغوري على الغدر بالسلطان جان بلاط، وبذلك استطاع طومان أن يعلن نفسه سلطاناً على بلاد الشام.

وقد كافأ السلطان طومان باي الغوري بعد عودته إلى مصر، بأن قلّده منصب الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية[٢].

---

(١) ابـن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢؛ الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٥؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ١١٣.

- أمـير مائة: مرتبة خاصة بأرباب السيف وتقرن عادة بلقب مقدم ألف، فيقال أمير مائة مقدم ألف، ويكون في خدمـة حاملهـا مائة مملوك وهو في الوقت نفسه مقدم في الحرب على ألف جندي، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٢٣، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٤٩-٥٠.
- مقـدم ألف: له التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء وهذه الطبقة أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجـاتهم، ومـنهم يكـون أكابر أرباب الوظائف، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج٤، ص١٤؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣١٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢.

- الدواداريـة: مصطلح فارسي مركب من لفظين، أحدهما عربي وهو الدواء، والمراد الذي يكتب منها والثاني فارسـي وهـو دار ومعـناها ممسك وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذي يحمل دواة السلطان ويتولى أمرها ويقـوم بتبلـيغ الرسـائل عـن السلطان، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٢؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٣٩.
- الوزارة: هي أجل الوظائف وأرفعها مرتبة، لو لم تخرج عن موضوعها، وصار المتحدث فيها كناظر المال لا يتعدى الحديث فيه، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨.=

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وعلـــى مـــا يـــبدو فان الأوضاع السياسية في هذه الحقبة الزمنية، قد اضطربت واختلت موازيـــنها، فقد ثار العسكر على السلطان طومان باي وذلك في نهاية شهر رمضان سنة (٩٠٦ هـــ/ ١٥٠٠م)[١].

• توليه السلطنة.

علـــى الـــرغم من قصر فترة حكم السلطان طومان باي، ألا أنها تميزت بالظلم والقمع وســـفك الدمـــاء وإساءة الظن بالأمراء[٢]. وكنتيجة لهذه السياسة التعسفية التي انتهجها السلطان طومـــان باي، أجمع الأمراء على قتله، فلما أحس طومان باي بذلك فر ناجياً بنفسه، وكان ذلك فـــي شـــوال سنة (٩٠٦هـــ/ ١٥٠٠م)[٣]، ألا أن الأمراء المماليك استطاعوا إلقاء القبض عليه وقتله[٤].

بعد اختفاء السلطان طومان باي، اجتمع عدد من الأمراء في بيت قانصوه خمسمائة من أجـــل الاتفـــاق علـــى اختيار سلطان لمصر،وقد كان في ذلك الوقت رجلان، يصلح كل منهما للســـلطنة، وهمـــا الأميران (قانصوه خمسمائة) و (تاني بك الجمالي)، وكان الأول مختفياً أثر انهـــزامه فـــي إحدى فتنه ضد الناصر محمد بن قايتباي. وكان الثاني مختفياً أيضاً أثر هزيمة الملك العادل طومان باي وفراره، وقع الاختيار في بادئ الأمر على الأتابكي تاني بك الجمالي،

= – الاســـتادارية: الاســـتدار هو الذي يتولى شؤون سكن السلطان كلها من المطابخ والحاشية، وله تصرف تام بكـــل ما يحتاجه من في بيت السلطان من النفقات والكواسي، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٢٨.

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢؛ الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٥.

(٢) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١١؛ القرماني، أبي العباس أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـــ/ ١٦١٠م)، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، (د. ت)، ص٣١٩؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ح٤، ص٢.

(٤) ابـــن أجـــا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠؛ القرماني، أخبار الدول، ص٣١٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولكـــن الأمـــر لـــم يتم لأنه أشيع في ذلك اليوم عن ظهور قانصوه الخمسمائة. وانتظر الأمراء ظهوره، ونادوا في القاهرة بأن على قانصوه الخمسمائة الظهور، وأن له الأمان إن ظهر خلال ستة أيام وإلا فلا أمان له[١].

ولمـــا طال انتظار الأمراء المماليك عاد كل أمير إلى بيته، وبعد مداولات بين الأمراء كان الرأي السائد عدم تعين الأتابكي سلطاناً، وذلك لأنهم وسموه بالطيش، وعدم ملاءمته لتولي هذا المنصب، وهكذا فقد ابعد عن تولي هذا المنصب[٢].

وأخيراً أجمع الأمراء على اختيار قانصوه الغوري سلطاناً على مصر، لأنه أحد الأمراء الكـــبار[٣]. وأحـــد المماليك الأشرفية[٤]، بالإضافة إلى أنه أكبرهم سناً لذا يسهل السيطرة عليه، وقـــيادته وتوجيهه حسب أهوائهم ورغباتهم[٥]. وعندما عرض عليه الأمراء ذلك رفض وامتنع

---

[١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣.

[٢] ابن إياس، بدائع الزهور ،ج٤، ص٣- ٤؛ عزام،عبد الوهاب، مجالس السلطان الغوري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١م، ص٩- ١٢.

- الأتـــابك: من ألقاب أمير الجيوش ومن في معناه، كالنائب الكافل، ولو أنها بالأتابك أخص، وأن أصله بالطاء فقلبـــت تـــاء في الاستعمال، ومعناه ، "الأب الأمير"، انظر: صبح الأعشى، ج٦، ص٥- ٦؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٤.

[٣] الكرمي، مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي (ت ١٠٣٣هـــ/ ١٦٢٣م)، نزهة الناظرين في تاريخ من تولى مصر من الخلفاء والسلاطين، مخطوط ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات مكتبة الجامعة الأردنية، رقم (١٥١) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في المغرب/ الخزانة العامة، الرباط تحت رقم (٦٠٧)، ورقة ٥٤أ، الحنفـــي، قطب الدين (ت ٩٨٨هـــ/ ١٥٨٠م)، تاريخ القطبي الحنفي، المسمى كتاب الأعلام بإعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، شرح وتعليق محمد طاهر، المكتبة العلمية، مكة المكرمة، (د.ت)، ص٢٠٨.

[٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢.

[٥] الحنفـــي، الأعلام، ص٢٠٨؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣؛ الصرفي، تاريخ دول الإسلام، ج٣، ص٩٠؛ مقديش، محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري، محمد محفوظ، دار العربي الإسلامي، (د.م)، (د.ت)، ج٢، ص٤٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عـــن تولـــي هـــذا المنصـــب، وبعد جهد تمكن الأمراء من إقناعه في تولي هذا المنصب فقبل كارها[١].

علـــى مـــا يبدو فإن هناك أسباباً عديدة تكمن وراء رفض الغوري وإصراره على عدم توليه السلطنة، فقد خشي على نفسه أن يصيبها ما أصاب السلاطين الذين سبقوه في الملك، من قـــتل أو خـــنق أو ســـجن. ثم لتيقنه بقصر الفترة التي سيتولاها في هذا المنصب كأسلافه من السلاطين.

وعندما قبل الغوري أن يلي منصب السلطنة قال لهم:

" أقـــبل ذلـــك بشـــرط أن ألا تقتلوني بل إذا أردتم خلعي وافقتكم "[٢]. فعاهدوه على ذلك وتمت مبايعـــته بحضـــور الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء[٣]، وكان ذلك في أوائل شوال (٩٠٦هـــ/ ١٥٠٠م)[٤]، وكان عمره ثماني وخمسين سنة[٥].

- **صفاته.**

ذُكر أن الغوري كان " طويل القامة، غليظ الجسد، له كرش كبير، أبيض اللون، مستدير الوجه، مشحم العينين، جهوري الصوت، مستدير اللحية، لم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً "[٦].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢-٤؛ عزام، مجالس السلطان، ص٩- ١٢.

(٢) الحنفي، الإعلام، ص٢٠٨؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص١١٣.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤؛ عزام، مجالس السلطان، ص١١.

(٤) الملطـــي، نزهة الأساطين، ص١٠٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤؛ الغزيّ، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٥؛ القرماني، أخبار الدول، ص٣١٩؛ الصرفي، تاريخ دول الإسلام، ج٣، ص٩.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٥؛ عزام، مجالس السلطان، ص١٣.

(٦) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٧؛ عزام، مجالس السلطان، ص١٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أما صفاته الخلقية، فقد ذكرت المصادر التاريخية، أنه كان كاظماً للغيظ، يمتاز باللينونة متواضـــعاً، ذا مـــزاج عالٍ يحب الضحك والمرح[١]. وقد اختلفت المصادر في تحديد شخصية الســـلطان الغـــوري، بعضها ذكرت أنه ذا شخصية قوية مهابة[٢]، وأخرى ذكرت أنه ضعيف الشخصية[٣].

كمـــا عرف عن الغوري إظهاره للتجمل في ملابسه[٤]، فقد حرص على ذلك من خلال تزيـــنه بالمجوهرات والأحجار الكريمة، فلبس خواتم من الزمرد والفيروز والماس وعين الهر والياقوت في أصابعه، أضف إلى ذلك أنه كان يكثر من استعمال العطور على اختلاف أنواعها كالمسك والبخور والعود[٥].

وقـــد ذكر أنه كان نهماً يكثر من تناول الطعام والفاكهة والشراب، واستعمل كاسات من ذهب في شربه للماء[٦].

ومن عادات الغوري حبه لسماع صوت الطيور، وشم رائحة الأزهار والورود، وغرس الأشجار، فقد كان يحب الطبيعة والجمال[٧].

- **ثقافته.**

كـــان الســـلطان الغـــوري علـــى معرفة بالعلوم الدينية كعلوم القرآن والتوحيد (الفقه، والتفســـير، والحديـــث)، وعلى اطلاع بعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، وقد كان

---

(١) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٩.

(٢) القرماني، أخبار الدول، ص٣١٩.

(٣) الحنفي، الأعلام، ص٢٠٨.

(٤) القرماني، أخبار الدول، ص٣١٩.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٨.

(٦) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١٢.

(٧) ابـــن إيـــاس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٧٢؛ ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١٢؛ رشدي، مصر والشراكسة، ص٩١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الغـوري يـتحدث عـدة لغـات[1]، مـنها: العربية، والتركية والفارسية والأرمينية والكردية والشركسية[2]، إلى درجة أنه كان ينظم الشعر باللغتين العربية والتركية[3].

وذُكر أن قاضي قضاة الشام ابن فرفور قد نظم قصيدة مدح بها السلطان الغوري والتي مطلعها:

لك الملك بالفتح المبين مخلد ... لأنك بالنصر العزيز مؤيد (البحر الطويل)

وأنت العزيز الظاهر الكامل الذي ... هو الأشرف الغوري وهو المسدّد

تملكته والسيف كاللحظ هاجع ... بأجفانه والرمح هاد ممدّد[4]

وقـد نظم السلطان الغوري قصيدة للرد على قصيدة قاضي قضاة الشام ابن فرفور التي مدحه فيها نذكر منها الأبيات التالية:

أجاد لنا القاضي ابن فرفور أحمد ... مديحاً به أثنى عليه وأحمد (البحر الطويل)

وقاضي قضاة الشام جاء يزورنا ... ويثبت دعوة حبنا ويؤكد[5]

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٩؛ عزام، مجالس السلطان، ص٣٨- ٣٩.

(2) رشدي، مصر والشراكسة، ص١٠١.

(3) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٩.

(4) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٩.

- ابـن فرفور: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمود بن عبد الله بن محمود، الشهير بابن فرفور الدمشقي، ولد سنة (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) وكان جامعاً بين كتب العلم والرياسة والكرم وحسن العشرة، ولي قضاء قضاة الشافعية بدمشق ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر. توفي سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)؛ أنظر: الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٩.

(5) الحنبلي، شذرات، ج٨، ص٤٩- ٥٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهكـذا فـإن السلطان الغوري كان محباً للشعر، كما أن الغوري شجّع الغناء حتى أن الغـناء شاع في عصره، وقد حظي المغنيون بمكانة مرموقة في عهده. ومما يدلّل على اهتمامه وحـبه للغـناء اصـطحابه لـدى سفره إلى الفيوم سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)عدداً من المغنيين والموسيقيين نذكر منهم محمد بن عوينه، وجلال السنيطيري[١].

ويذكـر كذلـك بأن الغوري كان حريصاً على عقد مجالس العلم والمشاركة فيها، وكان يستمع ويحاور[٢]، بالإضافة إلى ذلك فقد كان مولعاً بقراءة كتب التاريخ والسير والدواوين[٣].

ويصـفه الشـريف الشاعر الذي ترجم كتاب الشاهنامه بقوله مادحاً:" ما تذكر كلمة من العلـم والمعـرفة إلا أنـت محـيط بها وقد أتى قلبك حظاً من كل معرفة، كأن ضميرك اللوح المحفوظ"[٤].

- **زوجاته.**

تزوج السلطان قانصوه الغوري، بأكثر من زوجة ولكن المصادر لم تذكر سوى زوجتين من زوجاته هما خوند جان سُكر الجركسية، مستولدة الغوري[٥].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩٠.

(٢) عزام، مجالس السلطان، ص٤٨؛ رشدي، مصر والشراكسة، ص١٠١.

(٣) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٨٩.

(٤) عزام، مجالس السلطان، ص٣٩.

- الشـريف الشاعر: رجل عربي الأصل، اسمه حسين ابن محمد الحسيني الأموي، أحد شعراء التركية، اتصل بالسـلطان قانصوه الغوري، فأمره بترجمة كتاب الشاهنامة إلى اللغة التركية، بقي في مصر حتى توفي سنة (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، أنظر: عزام، مجالس السلطان ص٤٥- ٤٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٢٧.

- خوند: لفظ فارسي استعمل لمخاطبة زوجات السلطان أو أقاربه وقد دخل استعمال هذا اللفظ في اللغة العربية فـي عصـر المماليك، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص١١٦؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٢٥.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقــد توفيت سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[١]، ودفنت في مدرسة السلطان[٢]. أما الثانية فهي سرّية جركســية، وهــي أم ولده الصغير، توفيت سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)، ودفنت أيضاً في مدرسة السلطان[٣].

- **أولاده.**

رزق السلطان الغوري من الأولاد الذكور ثلاثة، لم يعش له منهم سوى ولد واحد فقط، واسمه محمد[٤]. وقد رافق المقر الناصر محمد والده إلى حلب[٥]، وشارك معه في معركة مرج دابــق ســنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦م)ثــم عاد إلى القاهرة بعد انتهاء المعركة، وبقي فيها إلى أن اصطحبه السلطان سليم بن عثمان معه عند عودته إلى استنبول[٦].

ومن البنات لم يرزق الغوري منهن سوى ابنة واحدة، قيل توفيت وهي في سن الزواج ودفنت في مدرسة أبيها[٧].

- **ألعابه.**

كان الغوري بالرغم من تقدّم سنّة مولعاً بممارسة بعض الألعاب الرياضية، ومن أبرز هذه الألعــاب الكــرة أو الأكــرة التي حرص على ممارستها بنفسه، ويؤكد ذلك ابن إياس في ذكر

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج٢، ص٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٢٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٢٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٨.

(٤) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٤٠.

(٥) ابــن أجــا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٣٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٤٧؛ ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٢.

- المقرّ: لقب شرف يمنحه السلطان لكبار أرباب الوظائف الديوانية، وكذلك ينعم به السلطان على أكابر الأمراء وأعــيان الوزراء، فالمقر من أجل ألقاب السلطان، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٩٤- ٤٩٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٩٤، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٢٢.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٢٨٠.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حـــوادث كل سنة من تاريخه " .... وفي يوم كذا بدأ السلطان بضرب الكرة، وفي يوم كذا كان ختم الضرب بالكرة "، وكان السلطان مواظباً على ممارسة لعب الكرة (الأكرة) في موسم معين من السنة[1].

ومن هواياته مشاهدة مناطحة الكباش والثيران، فقد كان يستمتع بالنظر إليها وهي تناطح بعضها بعضاً وكان يشجع الغوري ألعاب الفروسية، والرماية وكان يحب استعراضها بين وقت وآخر، ومنها ألعاب رمي الرمح[2].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٣- ٢٦٩؛ عزام، مجالس السلطان، ص١٨.

- لعـــبة الكـــرة: من ألعاب الفروسية وقد شغف بها السلاطين والأمراء، وتعرف هذه اللعبة في وقتنا الحاضر بلعـــبة البولو، وقد خصص المماليك لهذه اللعبة في كل مدينة ميداناً خاصاً وأوقاتاً معينة تلعب بها، بالإضافة إلـــى تعين موظفين من أجل الإشراف عليها ويسمى أحدهم " جوكندار" وهو حامل الجوكان أو عصا البولو، والجوكـــان عبارة عن عصا مرنة طولها أربعة أذرع، وبرأسها خشبة مخروطة طولها حوالي نصف ذراع، انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٤٧٩- ٤٨٠؛ غوانمة، يوسف درويش، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩م، ص١٢٢.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٩؛ عزام، مجالس السلطان، ص١٨.

الفصل الثاني

الأحوال الداخلية في مصر والشام في عهد قانصوه الغوري

- نظام الإقطاع الحربي وأثره على الفلاحين في مصر والشام
- المؤسسة العسكرية
- فتن أمراء المماليك وجلبانهم
- الأعراب في مصر والشام وعلاقتهم بالدولة
- فئات المجتمع في مصر والشام وعلاقتها بالسلطة الحاكمة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **نظام الإقطاع الحربي وأثره على الفلاحين في مصر والشام.**

الإقطـــاع في الإسلام نوعان: إقطاع تمليك وإقطاع استغلال، والأرض المقطعة بالتمليك إما موات، وإما عامر، وإما معدن، وإقطاع التمليك له شروط، منها يمكن للسلطان إقطاع أرض المـــوات ما لم يعرف صاحبها، أما الأرض العامرة فلا يمكن تمليكها، وإنما تؤخذ عنها الحقوق لبيت المال سواء كانت لمسلم أو لذمي إذا عرف مالكها، وعلى العكس تصبح هذه الأرض ملكاً لبيت المال في حال لم يعرف مالكها[1].

أمـــا إقطـــاع الاستغلال فهو الذي تؤخذ فيه خراج الأرض ورقبتها باقية لبيت المال[2]، والخـــراج كما ذكره القلقشندي: أما جزية وهو الواجب على الجماجم، وأما أجرة وهو الواجب علـــى رقـــاب الأرض، فإن كان الخراج جزية لم يجز إقطاعه أكثر من سنة لأنه غير موثوق باستحقاقه بعدها لاحتمال أن يُسلم الذمي فتزول الجزية عنه، وإن كان الخراج أجره جاز إقطاعه سنين لأنه مستقر الوجوب على التأبيد[3].

ولإقطـــاع الاســـتغلال ثلاثة أحوال، أن يقطع لسنين محدودة ومعلومة ويحدد فيها رزق المقطـــع وقيمة الخراج فإذا توفي المقطع يعود الإقطاع لبيت المال، وإن كان له ذرية دخلوا في عطـــاء الذراري دون أرزاق المدة، وفي الحالة الثالثة أنه يجوز إقطاع الأرض مدى الحياة وفي

---

(1) القلقشـــندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٢٠- ١٢١؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٨٠؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٧.

(2) القلقشـــندي، أبـــو العـــباس، أحمد بن علي (٨٢٠هـــ/ ١٤١٧م)، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، (د. ت)، ج٣، ص٢١٠.

(3) صـــبح الأعشى، ج١٣، ص١٢٣؛ ضومط، انطوان خليل، الدولة المملوكية، دار الحداثة، بيروت، (د. ت)، ص٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هــذه الحالة يحق للسلطان استرجاعه من صاحب الإقطاع بعد مرور سنة على تاريخ الإقطاع، ويعود رزقه إلى ديوان العطاء[1].

أمــا الإقطاع المملوكي فكان يعني ما يتحصل من الأرض من غلة أو مال، ولم يقتصر علــى الأراضـــي الزراعية وإنما شمل الضرائب أيضا[2]. وقد كان هذا الإقطاع يرتبط بديوان الجــيش (وهو الذي يشرف على شؤون الجيش)، وقد كانت الأراضي الزراعية تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده مقابل الخدمة العسكرية؛ لهذا أطلق على هذا الإقطاع صفة الإقطاع الحربي[3].

إلا أن هذا الإقطاع الحربي المملوكي لم يكن وراثياً، وإنما ينتقل من مقطع إلى غيره من المقطعين بمجرد موت صاحبه[4]. ولكننا نجد حالات خاصة لبعض (إقطاعات تمليك) التي تنقل للورثــة، فقــد منح الظاهر بيبرس أمراءه بعض الإقطاع في قرى فلسطين وشرقي الأردن من جــنوب الشام، إلا أن هذا النوع من الإقطاع يختلف كلياً عن الإقطاع العسكري المملوكي الذي كان اكثر انتشاراً[5].

ومـــن أمـــثلة إقطاعات الأمراء على سبيل المثال، نجد أنه بلغ مجموع إقطاعات الأمير ســـلار كمـــا يذكرها المقريزي:" ومن إقطاعاته (١٣٣) فداناً وضماناته وحماياته تتمة مائة ألف

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٢٣- ١٢٤.

(٢) ضـــومط، الدولـــة المملوكية، ص٩٩؛ سعد، أحمد صادق، تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩م، ص٤٥٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص١٥٣؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص٩٨؛ عاشور، سعيد، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٢م، ص٢٨٥.

(٤) ابـــن صصـــري، محمـــد بن محمد، المتوفى بعد سنة (٨٠٠هـــ/ ١٣٩٧م)، كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، عني بتحقيقه وترجمته ونشره وليم م بيريز، جامعة كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية،١٩٦٣ م، ج٢، ص١١٥؛ غوانمة، يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م، ص٧٤.

(٥) الـــدوادار، بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـــ/ ١٣٢٤م)، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم لـــه ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٥٥؛ غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص٧٥.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

درهـــم فـــي اليوم"[1]، كذلك بلغ مساحة إقطاع الأمير ططخ (ت ٨٨٦هـــ/ ١٤٨٢م)، في عهد السلطان قايتباي (١٦٢٥) فداناً، وعبرته ثلاثة آلاف دينار[2].

أمـــا فـــيما يخـــص الإقطاع العسكري في عهد السلطان الغوري، فقد كانت الأراضي الزراعية في عهده مقسمة إلى إقطاعات تختلف باختلاف مساحاتها وغلاتها ومواقعها، ويختص السلطان منها بنصيب والأمراء والجنود بنصيب آخر[3].

وقـــد ســـار الســـلطان الغوري على نهج السلطان الناصر محمد بن قلاوون في تقسيمه للإقطـــاع (الـــروك)، مع إجراء تعديلات بسيطة، حيث نجد أن الغوري عدل بعض التعديل في مســـاحات بعض الإقطاعات. حتى أنه أنقصها عن ذي قبل، وربما أراد من هذا التعديل أن يجد متســـعاً من الإقطاعات يعالج به الزيادة في عدد أمرائه وجنوده، وفي هذا يقول ابن إياس:" أن الغـــوري أحدث شيئاً لم يحدثه أحد من الملوك قبله، وذلك انه نقص من إطلاقات الأمراء أشياء كثـــيرة (والإطـــلاق أرض معفاة من الضرائب)، فنقص من إطلاق أمير كبير سودون العجمي

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٢، ق١، ص٩٧.

(2) طرخان، إبراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٣١.

- العبرة: هي مقدار المساحة، وهي في الاصطلاح القديم مقدار المربوط من الخراج في الأموال لهذه الإقطاعية من الأرض أو ما يتحصل على كل قرية من عين أو غلة، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٥٠.

(3) غوانمة، نيابة بيت القدس، ص٧٥.

- الناصـــر محمـــد بـــن قلاوون : هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصـــور ســـيف الديـــن قلاوون، بويع بالسلطنة سنة(٦٨٤هـــ/١٢٨٥م) ولقب بالملك الناصر، وتوفي سنة (٦٩٩هـــ/ ١٢٩٩م)، أنظر: ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٥١.

- الـــروك: كلمـــة قبطـــية أصلها (روش) ومعناها الحبل، ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الأرض بالحبل وتعنـــي قـــياس الأراضي ومسحها وذلك لتقدير درجة خصوبتها لربط خراج مناسب عليها وإعادة اقطاعها، انظر: طرخان، إبراهيم علي، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطـــباعة والنشـــر، القاهـــرة، ١٩٦٨م، ص٩٥- ٩٦؛ عمارة، محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٦١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مائتـــي فدان، وكان قبل ذلك سلخ من إقطاعه جهات بنحو من عشرين ألف دينار كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه"[1].

وقـــد سلك الغوري مسلكاً آخر لعلاج الزيادة في عدد الأمراء والجند، فقام بجمع خراج الأرض مـــن الفلاحيـــن قبل استحقاقه وقبل جمع المحصول الجديد، بل كان قبل موسم فيضان النـــيل، ممـــا عرضـــهم لكثير من المظالم. وهذا ما ذكره ابن إياس في حوادث سنة (٩١٨هـــ/ ١٥١٢م) فقـــال: أن الســـلطان الغوري رسم " لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلوا على الـــبلاد ويســـتخرجوا مـــن الفلاحيـــن الحمايات والشياخة وقدوم الكشّاف عن سنة ثمان عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل، وقبل أن تنزل النقطة وينادي على النيل"[2].

---

[1] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٨٣.

- إطلاقـــات: مفردها إطلاق، وهي إما تقرير يوافق عليه السلطان أو الملك لما قرره من سبقه من السلاطين أو الملـــوك، وأمـــا ابـــتداء لتقرير ما لم يكن مقرر قبل، وأما زيادة على ما هو مقرر، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٤١؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٦.

[2] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٢.

- الحمايـــات: مفـــردها حمايـــة، مكوس يفرضها السلطان أو الأمير على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق، وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذي يدفع المكس، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١٥٧؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١١٠.
- الشياخة: مفردها شيخ، وشيخ القرية يكون من رجال الإدارة في القرية وهناك مناصب أخرى للشياخة، كشيخ الـــتجار وغـــيره. انظر: مصطفى، إبراهيم، المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران، (د. ت)، ج٢، ص٥٠٥.
- الكشّاف: يعينون مرة كل سنة من الأمراء مقدمي الألوف، لكل إقليم أمير في زمن الربيع لاستخراج ما يتعين علـــى الـــبلاد مـــن الحفـــر والجـــرافة، كمـــا يجمع من البلاد المبالغ اللازمة لذلك، انظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٢٨٧- ٢٨٨.
- الســـنة الخراجـــية: هـــي السنة المالية، يبدأ في أولها استحقاق الخراج وجبايته، وكانت في مصر تؤرخ في الشهور القبطية أي التقويم المصري القديم- وتقويمها هو تقويم المواعيد والفصول الزراعية، واستمر ذلك إلى أن تحولت السنة الخراجية إلى التقويم الهلالي العربي، أنظر: عماره، قاموس المصطلحات، ص٢٩٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأحياناً كان يأخذ منهم مقادير مالية أكثر مما هو مخصص[1]. ويفهم هذا من أن الغوري كان يفرض على هؤلاء الفلاحين الغرامات الفادحة، للإصلاحات الطارئة كإصلاح الجسور مثلاً[2]، أو لإعداد تجريدة معينة[3].

وقد أدت سياسة الغوري هذه اتجاه المقطعين من الفلاحين أن هجروا الأرض، وامتهنوا الرعي وحياة البادية، مما تسبب في خراب القرى، وتعطل الزراعة في الريف المصري والشامي معاً[4].

وقد لحقت بالفلاحين الكثير من المظالم، ففي سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) تعرض الفلاحين لظلم المماليك الأجلاب، حيث كانوا يخطفون منهم الأبقار والأغنام، وفي هذا يقول ابن إياس:" وكانت الأضحية في هذا العيد في غاية الانشحات من الغنم والبقر وذلك بسبب تسلط المماليك الأجلاب على الفلاحين الذين يحضرون البقر والغنم"[5].

كذلك لم يسلم الفلاحين من خطر العربان وتعدياتهم، فما قاموا به من العصيان أدى إلى خراب البلاد وإتلاف الزروع، وكان هذا سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)[6].

كذلك تعرض الفلاحين للضرب من قبل الكشاف لدفع الأموال، وكان الذي يهرب من الفلاحين، يقبض الكشاف على نسائهم وأولادهم[7].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤؛ الشربيني، البيومي إسماعيل، مصادرات الأملاك في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. م)، ١٩٩٧، ج١، ص٣٤٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩١.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٦٨، ابن طولون، شمس الدين (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، أعلام الورى فيمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى،تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، (د. م)، (د. ت)، ص ١٧٠.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٢؛ غوانمة، يوسف درويش، في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٠م، ص١٨٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩٥.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٥٦.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

- **المؤسسة العسكرية.**

تعتبر المؤسسة العسكرية في عهد الغوري في مصر وبلاد الشام، امتداداً للجيش المملوكي الذي وجد في عهد من سبقه من السلاطين، سواء كان ذلك من حيث تنظيمه وتسليحه والفئات التي يتكون منها. وأن كنا سنجد في بحثنا هذا بعض التغيرات والإضافات التي أوجدها الغوري على مؤسسته العسكرية، تمشياً مع الظروف السياسية والاقتصادية التي عاشتها الدولة في عهده. لقد تشكل الجيش في عهد الغوري من مجموعة من الفرق فجاء تنظيمه على النحو الآتي:

١. **المماليك السلطانية :**

تعتبر هذه الفرقة من أهم وأعظم الفرق العسكرية في الجيش المملوكي، وأكثرها قرباً من السلطان، وأوفرها إقطاعاً[١]، ولم يكن عددهم محدوداً بل يترك ذلك للسلطان. ففي عهد السلطان قايتباي بلغت مشترواته حوالي ألفي مملوك[٢]، بينما في عهد الغوري بلغ عددهم في سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) ألفاً ومائتي مملوك[٣]، وتقسم هذه الفرقة إلى عدة فئات:

أ. **الخاصكية:** وهم الذين يلازمون السلطان بكل تحركاته، ويقومون بالمهمات الشريفة، ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يشرف بنفسه على تربيتهم وعتقهم، لذلك كانوا قريبين منه أكثر من غيرهم من المماليك[٤].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص(١٥- ١٦) Ayalon: "Studies on the Structure of the mamluk army", B.O. S. A. S., vol xv, Part (2), 1953, P(204)

(٢) الراقد، محمد عبد المنعم، الغزو العثماني لمصر، مؤسسة شباب الجامعة، (د. م)، (د. ت)، ص٧٥.

(٣) الظاهري، زبدة كشف المماليك، ص١١٥؛ شبارو، عصام، السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت)، ص

(٤) عدوان، أحمد محمد، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، دار الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، (د. ت)، ص٢٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب. **الأجـلاب أو المشـتروات:** وهـم المنسوبون إلى السلطان المستقر، يشتريهم ويضعهم في الطـباق، وبعـد أن يتم تربيتهم في الطباق يعتقون وينعم عليهم بالخيل والقماش بالإضافة إلى السـلاح والجامكـية[1]. وقد كثر في عهد الغوري جلب المماليك الأجلاب، وفي هذا يذكر ابن طولـون:" وفي هذه الأيام جلب المماليك الجراكسة من بلادهم إلى مصر، وكلما مروا بدمشق نهبوا ما قدروا ... وغالبهم كبار بذقون"[2].

ج. **السـيفية:** وهـم على نوعين، النوع الأول: هم مماليك ينسبون إلى السلطان السابق والنوع الثانـي: هم المماليك الذين ينسبون إلى الأمراء وكانت هذه الفرقة تفتقد إلى الترابط والانسجام بين أفرادها؛ لأنها لم تكن تنتمي فيما سبق لأمير واحد، لذلك كانوا لا يعرفون بعضهم بعضاً[3].

د. **القرانيص:** وهم مماليك السلاطين المتوفين أو الأمراء السابقين الذين ينضمون إلى السلطان القـائم. وقد تمتعت هذه الفئة بكفاءة عسكرية مميزة[4]، إلا أنهم لم يكونوا فرقة واحدة لانتساب كـل جماعة منهم إلى السلطان الذي أعتقهم لذلك لم يشكلوا أي قوة تذكر في الدولة، مما أفقدهم الحصـول علـى العطاءات والرتب العالية إلا في حالات قليلة. وقد تميزت علاقاتهم بالأجلاب بالعداء والتنافر[5].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١٤- ١٥؛ دهمان، معجم الألفاظ، ص١٠٥.

- الطـباق: هي ثكنات عسكرية في العهد المملوكي، وكانت كل طبقة تضم المجلوبين من منطقة معينة، وهي تقع داخل القلعة، وتشبه المدارس العسكرية، انظر: ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٨٣ ؛
Ayalon, op. Cit., P. 205.

- الجامكـية: الجمع جوامك، وهي الرواتب عامة، وقد كانت نفقة مماليك السلطان عبارة عن جامكيات وعليق وكسوة، أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٧.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣١٧، ص٣٨٢.

(3) العريني، السيد باز، المماليك، دار النهضة العربية للطباعة، (د. م)، ١٩٦٧م، ص١٣٠- ١٣١؛ رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر، دمشق، ط٢، ١٩٦٨م، ص١٦، شبارو، السلاطين، ص١٣٦.

(4) العريني، المماليك، ص٨٤.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٨٤؛ الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص١١٥- ١١٦.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وتعـد المماليك السلطانية أساس الجيش المملوكي، فقد كانت الحروب الرئيسية من مهمات هـذه الفرقة، كما أنها كانت ترسل في التجاريد العسكرية عند حاجة الدولة لذلك. وقد رأينا ذلك مـن خـلال تعاون السلطنة المملوكية مع الهند، تصدياً للأخطار البرتغالية التي هددت المحيط الهـندي وتجـارة الشـرق الأقصى. فقد أرسل السلطان الغوري في سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تجـريدة عسـكرية إلى الهند كان أساسها المماليك السلطانية[١]. كما أن هذه الفرقة خرجت في الـتجاريد العسـكرية التي أرسلت للحد من تعديات العربات، وعلى التحديد للقضاء على تمرد وعصيان عربان بني لام في الكرك[٢] سنة (٩١٢هـ / ١٥٠٦م).

وقـد كانـت هذه الفرقة تتمركز في العاصمة ولم تكن موزعة في أنحاء البلاد، حيث يتم تدريبهم في الطباق وبعدها يقومون بخدمة السلطان وتولي المناصب في الدولة[٣].

إلا أن هـذه الفرقة فقدت أهميتها مع مرور الزمن وخاصة في عهد السلطان الغوري، ولم تعـد تتمـتع بتلك المكانة التي حظيت بها في بداية العصر المملوكي. وليس أدل على ذلك من تـناقص أعـداد المماليـك السـلطانية في عهد دولة المماليك الثانية، عنهم في دولة المماليك الأولى[٤].

وفـي هذا يذكر ابن زنبل الذي عاصر نهاية السلطنة المملوكية، عن عدد أجلاب السلطان المملوكي في معركة مرج دابق بقوله:" ... كان الجلبان ثلاثة عشر ألف مملوك كلهم مشتروات الغوري ... وكان قصده أن ينشئ له عسكراً من مماليكه مشترواته ويقطع القرانصة"[٥].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٩.

(٣) ضومط، الدولة المملوكية، ص٢٢.

(٤) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٢٦.

(٥) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويـــبدو أن هـــذا التغيير الذي قلل من أهمية المماليك السلطانية في الجيش، ربما يعود إلى كـــثرة عدد السلاطين بسبب قصر مدة حكمهم في هذه الفترة، وما يترتب عليه من ازدياد عدد هذه الفئات وتنوعها، وبالتالي ازدادت المنافسة بينهم مما زرع في نفوسهم الغيرة والحسد، فكان هذا سبباً من أسباب الاختلاف في صفوفهم.

٢. أجناد الحلقة:

تعتبر هذه الفرقة قلب الجيش المملوكي، وهم الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الأمـــراء. وقـــد ازداد عددهـــم عن طريق دخول عناصر جديدة إلى صفوفهم، فقد انضم إليهم أصحاب الصنائع والحرف على أثر الضعف الذي لحق بالجيش، لقيام أفراده ببيع إقطاعاته إلى أهالـــي البلاد. كما انضم إلى صفوفهم أحياناً مماليك الأمراء الذين انحلت إقطاعات أستاذتهم[١]. كذلـــك نجـــد أنـــه ربما دخل في صفوف هذه الفرقة من ليس لهم صفة الجندية من المتعممين والعـــربان والأكراد والتركمان، بواسطة النزول عن إقطاعاتهم بحيث أصبحوا جزءاً من أجناد الحلقة.

وأجـــناد الحلقـــة هم بمثابة الجيش الدائم للدولة، دون أن يكون أفرادها ملكاً للسلطان وأن كـــانوا يأتمرون بأمره[٢]. لهذا نجد أن هذه الفرقة موزعة في مختلف أنحاء البلاد، فمنها ما هو موجـــود فـــي مصر وبلادها، ومنها ما هو موجود في بلاد الشام[٣]، بعكس المماليك السلطانية الذين يعتمدون على الجوامك يكون مركزهم في العاصمة.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦، عدوان، العسكرية، ص٣٥.

(٢) عدوان، العسكرية، ص٣٥؛ عاشور، مصر والشام، ص٢٨٦.

(٣) الصـــيرفي، علـــي بن داود الخطيب الجوهري، (ت ٩٠٠هـــ/ ١٤٩٤م) نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٦٥، ٦٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣. أجناد الأمراء:

وهم أجناد من مشتريات نائب السلطنة والأمراء في النيابات، وقد شكّل هؤلاء فرقة مستقلة عن بقية فرق الجيش المملوكي من سلطانية وأجناد حلقة وغيرها.

وهؤلاء الأمراء كانت تنقصهم التربية العسكرية في الطباق، لذلك لم يتقنوا الفنون العسكرية القتالية، واقتصر عملهم على خدمة أمرائهم[١]، لذلك لم يتمتعوا بأي نفوذ سياسي[٢]. وكان هؤلاء الأجناد يأخذون مناشيرهم الإقطاعية من الأمير نفسه وليس من السلطان، وكذلك يتقاضون منه مرتباتهم[٣].

٤. فرقة العبيد النفطية:

وسميت أحياناً باسم رماة البندق، وكان أساسها العبيد السود[٤]، وقد بلغت هذه الفرقة مكانة وأهمية كبيرة في عهد الغوري، نلحظ ذلك من خلال قيامها بالاستعراض العسكري أمام قصّاد (سفراء) الغوري، لإظهار ما يتمتع به الجيش المملوكي من لياقة وبراعة.

فعلى سبيل المثال قامت هذه الفرقة برمي النفوط خلال عرض عسكري أُقيم في الميدان بحضرة السلطان وبيرك قاصد صاحب بغداد في سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)[٥].

٥. فرقة الجامكية الخامسة:

قام بتأسيس هذه الفرقة السلطان الغوري في سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)، وعناصرها

---

(١) رافق، بلاد الشام ومصر، ص١٨.

(٢) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٢٨.

(٣) المنشور الإقطاعي: أمر سلطاني مكتوب بإقطاع من أرض أو مال أو غير ذلك، انظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٣٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٤؛ سعيد، إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ١٩٨٣م، ص٣٠٥.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تـــركمان وأعـــاجم وحرفيـــن إضـــافة إلى أولاد الناس[1]. وقد سميت هذه الفرقة باسم الطبقة الخامســـة؛ لأن أفـــراد هـــذه الطبقة تتسلَّم روواتبها في غير الأيام الأربعة التي توزع فيها نفقة العســـكر[2]. والـــدارس لتاريخ دولة المماليك يجد لهذه الفرقة اسم آخر عُرفت به وهو" العسكر الملفـــق"، لأنهـــا ضمَّت عناصر من مختلف الأجناس. وفي هذا يقول ابن إياس في أحداث سنة (٩١١هـــ/ ١٥٠٥):" وكان العسكر الذي خرج في هذه التجريدة ملفقاً ما بين أولاد الناس وبعض مماليك سلطانية والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك"[3]. كذلك نجد أن ابن إياس يعلق على هذه الفرقة بقوله:" وقد تزايد أمر هذه المماليك الأراذل الذين صار يستكثر منهم فـــي الديوان، ففيهم من لا يعرف يجذب القوس، ولا يمسك الرمح، وهذا أمر عجيب، يشحُ فيمن يستحق الجامكية، ويعطيها لغير مستحقها"[4].

ونلاحـــظ أن السلطان الغوري رأى أن تلحق هذه الفرقة بالطباق الأربعة الموجودة ويلغي الطبقة الخامسة. وهكذا انتظم صرف الجامكيات كما يقول ابن إياس في سنة (٩٢٠هـــ/١٥١٤م):" وفـــي يوم الاثنين سادس عشرة نفق السلطان الجامكية على العسكر، وفي هذا الشهر حسن ببال الســـلطان أن يضـــيف الطبقة الخامسة التي جدَّدها برسم العسكر الملفق فوزِّع ذلك على الطباق الأربعة، كما كانوا في الأول. وأبطل أمر الطبقة الخامسة وصار العسكر شيئاً واحداً عن تفرقة الجامكية"[5].

وعلـــى مـــا يبدو فإن ضغط المماليك على السلطان كان السبب الأول وراء تسريح هذه الطـــبقة، إضافة إلى رغبة السلطان بأن لا يغير شيئاً من نظام الفروسية عند جنوده. وقد أوضح

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠٠، ٢٠٦.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠٦.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٤.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠٦.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٦٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الغـوري دوافعه من تأسيس هذه الفرقة عندما قال لمماليكه كما يورد ذلك ابن إياس في تاريخه سنة (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م):" حتى يكونوا فداء لكم في الأسفار والتجاريد"[١].

ويتضـح مما سبق أن هناك أسباباً معينة دفعت بالسلطان الغوري إلى تجنيد مثل هؤلاء، ولا سـيما أنهم لا يجيدون القتال، ومن هذه الأسباب الطواعين والأوبئة التي قضت على أعداد كبيرة من الجيش المملوكي[٢]، إضافة إلى ضعف السلطنة المملوكية اقتصادياً فلم تعد قادرة على شراء المماليك صغار السن [٣].

- **عناصر الجيش:**

١. الأتراك :

الـترك اسم أطلق على سكان سهوب آسيا[٤]، وهم قبائل بدوية كثيرة[٥]، ومن أشهر تلك القبائل قبيلة القفجاق التي استوطنت في منطقة بحر قزوين[٦].

ومن صفات الترك القدرة على القتال حيث يتصفون بالقدرة على الرماية عن ظهور الخيل دون الـتعرض لسـهام الخصـم. وكلمـة الترك تعني الرجل القوي أو شديد البأس، كما كانوا يتصفون بحبهم للنظام[٧].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٦٩.

(٢) ابـن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٧٦؛ غوانمة، يوسف درويش، " الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة فـي جـنوب الشام والأردن وفلسطين"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق العددان (١٣، ١٤)، ١٩٨٣م، ص٧٤- ٨١.

(٣) غوانمة، التاريخ والحضارة، ج١، ص ١٨٨.

(٤) العريني، المماليك، ص٥٤- ٥٥.

(٥) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (١٩٦٦م-١٩٦٧م)، ص١٩- ٢٠.

(٦) ماجد، عبد المنعم، نظم دولة السلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة الرسالة ١٩٦٤، ج١، ص ١٠.

(٧) العريني، المماليك، ص ٤٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢. الجركس أو الشركس :

هـــم عنصر قوقازي الجنس ومواطنهم تلك الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي[١].

والجركس أو الجهاركس لفظ أعجمي يعني الرجال الأربعة، أي بمعنى القبائل الجركسية الأربعـــة وهـــي: ســـركس، أركـــس، كســـا، آص، وتندرج تحت هذه القبائل الفروع القوقازية الأخـــرى[٢]. ويتصـــف الجراكســـة بالشـــجاعة والمهـــارة فـــي الفروسية، وفي رمي الرماح والأقواس[٣].

٣. التركمان :

هم إحدى قبائل الغز المسلمة، التي اختلطت بشعوب المناطق التي نزحوا منها (وسط آسيا – مـــنطقة التركســـتان) واســـتقروا في المنطقة الواقعة جنوب روسيا الحالية، وفي نواحي بحر قزوين، والمنطقة القوقازية حتى البحر الأسود[٤]. ويتصف العنصر التركماني بشجاعته وقدرته الفائقة على الرمي بالقسي والنشاب والسيوف والأطبار[٥].

٤. أولاد الناس :

شكل هؤلاء فرقة عسكرية احتياطية ولم يكونوا جنداً نظاميين في الجيش المملوكي، وهم أبناء السلاطين والأمراء والمماليك، ممن ولدوا أحراراً ولم يمرُّوا وهم صغار السن بدور الـــرق

---

(١) رشـــدي، مصـــر والشراكسة، ص٥؛ شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي، الكتب الإسلامي، بـــيروت، دمشـــق، ط٢، ١٩٨٥م، ص ٧٠؛ نوغمو، شورا بكمرزا، موجز تاريخ الجركس، تعريب شوكت المفتي، مطبعة الأردن، عمان، ١٩٥٣م، ص٩- ١١.

(٢) عزت، يوسف، تاريخ القوقاز، دار صوت النازيين للنشر، (د. ت)، ص٨١.

(٣) نوغمو، موجز تاريخ الجركس، ص ١٢٢.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٥٦- ٢٦٦.

(٥) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٤٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الـــذي مر به آباؤهم[1].وقد لحق هؤلاء بفرقة الحلقة، وكانوا يشكلون الفئة العليا في هذه الفرقة. ومـــع هـــذا لم ينالوا رتبة أعلى من أمير عشرة، ومع مرور الزمن تدهورت أحوال هذه الفرقة وبيعت إقطاعاتهم حتى أنهم أُعفوا من الخدمة العسكرية[2].

٥. العبيد :

وقـــد عـــرفوا فـــي الجيش المملوكي بالعبيد السود، وهم أدنى طبقات المجتمع العسكري المملوكـــي مـــن الناحـــية الاجتماعـــية، وتـــرجع أصـــولهم إلـــى أربعـــة أجناس وهم: الروم والأحباش،والهنود والتكرور[3].

- **أسلحة الجيش :**

كانـــت أســـلحة الجـــيش المملوكي متعددة تبعاً لاستخدامها في الحروب وتشير المصادر التاريخـــية المملوكـــية إلـــى أن هذه الأسلحة لا تختلف في مصر عنها في بلاد الشام، فالأسلحة المملوكـــية مـــنها الفردية التي يستخدمها الجندي، ومنها الجماعية التي تحتاج إلى مجموعة من الجند.

أ. الأسلحة الفردية:

وهي الأسلحة التي يستخدمها الجندي الواحد راجلاً كان أو فارساً، وهذه الأسلحة تكون

---

(١) أمين السيد، حكيم، قيام دولة المماليك الثانية، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٣١.

(٢) الشريدة، امنه، الجيش في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م، ص ٧٢؛ خجـــة، شوكت رمضان، التاريخ السياسي لمنطقة شرقي الأردن من جنوب بلاد الشام في عصر دولة المماليك الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٦م، ص ١٠٩.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٦٦، ٢٤٥.

- بلاد التكرور: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه الناس بالزنوج، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٣٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هجومـــية أو وقائـــية، ومن الأسلحة الفردية الهجومية السيف[١]، والرمح[٢]، والقوس[٣]، والنشاب[٤]، والطبر[٥]، والخنجر[٦].

أمـــا الأســـلحة الفردية الوقائية فقد استخدمها الجندي المملوكي لحماية نفسه من الأعداء، كالخوذ[٧]، والزرديات[٨]، والتروس[٩].

- **الأسلحة الجماعية :**

وهي التي تحتاج إلى أكثر من جندي لاستخدامها لثقلها وصعوبة نقلها، ومنها:

١. المنجنيق :

---

[١] وللســيف عدة أنواع: منه الطويل والقصير والرقيق، وقد عرفت الدولة المملوكية السيف المزين والمرصع، لمزيد من المعلومات، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٥٨؛ غرايبة، قيصر، الرقيق العسكري في المجتمع المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٧م، ص ٩٣- ٩٤.

[٢] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص ٣٥٧، ٣٧٢.

[٣] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٥٢.

[٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٦ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٤٤.

[٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢١٩.

- الطـــبر: ويعني باللغة الفارسية الفأس، إلى الطبر تنسب الطبر دارية، وهم يحملون الأطبار حول السلطان في الاحـــتفالات الرسمية، ويرأسهم أحد أمراء العشرات ويسمى الطبر دار، انظر: ابن فضل الله العمري، شهاب الديـــن أحمد يحيى (ت ٧٤٩هـــ/ ١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٢م، ص٢٩٧.

[٦] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٢٢.

[٧] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٣، ٢٥٩.

- الخـــوذ: وتصـــنع من الجلد أو من الحديد وتوضع على الرأس للوقاية والحماية من الضرب، انظر: عدوان، العسكرية، ص٥٩.

[٨] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٢٢، ٣٥٨.

- الـــزرديات: مفـــردها الـــزرد وتعني الدرع المزودة بداخل حلقاتها في بعض، انظر: مؤلف مجهول، خزانة السلاح، حققه وكتب له الدراسة والمقدمة نبيل محمد عبد العزيز، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٦١.

[٩] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٥٩.

- الـــتروس: مفـــردها تـــرس وهو الآلة التي يتقي بها المحارب الضرب والرمي عن الوجه والصدر، انظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٠٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من أهم الأسلحة الجماعية، وقد استخدم لدك الأسوار بقذفها بالحجارة وغيرها من المواد، وقـد تعـددت أنواع المنجنيقات، فلم تعد قاصرة على رمي الحجارة فقط، بل كان منها ما هو لرمي السهام أو قدور النفط، ومنها الكبير والصغير[١].

٢. مكاحل البارود والمدافع :

عني السلطان الغوري عناية ملحوظة بالمدافع، وبمجرد اعتلائه العرش أمر بسبك المدافع، ففي سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) أنشأ الغوري على مقربة من ميدان فروسيته، سبكاً للمدافع وصنع فيه كميات كبيرة من المدافع[٢].

وقـد ذكرها ابن إياس في تاريخه في أكثر من مناسبة، ذكر بأن عددها بلغ خمسة عشر مدفعـاً[٣]، وفي مرة ثانية سبعين مدفعاً[٤]، وفي ثالثة سبعة وخمسين مدفعاً[٥]، وفي مرة رابعة ذكر بأنها أربعة وسبعون مدفعاً[٦].

وممـا يجـدر الإشـارة إليه أن هذا التوسع الملحوظ في سبك المدافع، يرجع إلى ظهور الخطـر البرتغالـي الـذي أخذ يهدد منافذ البحر الأحمر والخليج العربي. فقد أسرع السلطان الغـوري إلى بناء أسطول جديد في السويس بمساعدة المهندسين والفنيين العثمانيين للوقوف في

---

(١) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٠٣- ٣٠٤؛ عدوان، العسكرية، ص ٦٤- ٦٥.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٤- ٢٦٥.

- المدافـع: وتسـمى مكـاحل البارود، وهي المدافع التي يرمى عنها بالنفط،انظر: غوانمة، التاريخ السياسي، ص٢٤٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩١، ١٩٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦١.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٤- ٢٦٥.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٧٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجه الأطماع البرتغالية الاستعمارية في البحر الأحمر، وحماية الأماكن المقدسة، وقد زود هذا الأسطول بالمدافع[١].

إضافة إلى ما سبق نجد أن الغوري قام في سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) بإرسال مدافع ومكاحل حديد إلى الإسكندرية لحماية الساحل المصري ضد الهجوم العثماني الذي كان يهدد البلاد. وفي هذا يقول ابن إياس:" وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع صوان إلى ثغر الإسكندرية، وتمضي في مراكب إلى هناك فكانوا نحو مائتي مكحلة، وقد بلغه بأن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجيء على السواحل للديار المصرية ..." [٢].

إلا أن جيش السلطان الغوري لم يستخدم هذا السلاح بشكل كثيف كما ينبغي في التقائه مع العثمانيين في معركة مرج دابق (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، بينما استخدمه العثمانيون بشكل كبير. وقد أشار إلى ذلك ابن زنبل بقوله:" وأطلقوا المدافع والبندقيات، وحملوا على الجراكسة"[٣].

واستخدم ملح البارود في هذه المدافع، وقد بحث المماليك عن هذه المادة في مصر وبلاد الشام نذكر ما تم اكتشافه في " بلد خراب بالقرب من الكرك" سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) فطبخوه فوجدوه بارود. وكان ذلك مصدر سرور للسلطان الغوري، علماً بأن الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون قد استخدم سلاح المدافع في ثورته بالكرك سنة (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) [٤]. فالبارود كان يستخدم في سلاح المدافع في الجيش المملوكي، ولكن مادة البارود كانت نادرة الوجود في مصر، مما دفع بالسلطنة إلى استيرادها من أوروبا. لذا فإن اكتشاف البارود في منطقة الكرك

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٦٥- ٣٦٦؛ غوانمة، يوسف درويش، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتها التاريخية والاستراتيجية، دار هشام للنشر والتوزيع، اربد، ١٩٨٤م، ص٨٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٤؛ سعيد، البحرية، ص٣٠٥.

(٣) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٤٥؛ غوانمة، التاريخ السياسي، ص٢٤٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أثلج صدر السلطان؛ لأن الدول الأوروبية فرضت حصاراً اقتصادياً على دولته ولم يعد بالإمكان استيراد هذه المادة[١].

٣. المقذوفات وقدور النفط :

لقـــد برع المماليك في عهد السلطان الغوري باستخدام النفط[٢]، وهناك أنواع متعددة من النفط، منها نفط يرمى به بالنشاب، والرمح، والمنجنيق، أو مكاحل البارود والمدافع[٣].

وعلـــى هـــذا النحو نجد أن الغوري لم يرغب المساس بالنظام المملوكي الذي يعتمد على الفروسية، وإنما أراد الحفاظ على هذا البناء، إلى جانب التوسع في استخدام الأسلحة النارية من خـــلال زيادة عدد المدافع التي يسبكها إضافة لاهتمامه بالفرويسة وسلاحها وتمارينها، وهنالك شـــواهد تاريخية كثيرة تدل على اهتمام الغوري بإحياء تداريب الفروسية ليعيدها إلى ما كانت عليه من قبل، بالإضافة إلى عنايته بالمدفعية.

ففـــي سنة (٩٠٩هـــ/ ١٥٠٣م) أقام الغوري ميداناً كبيراً[٤]، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الميدان من أهم الأماكن التي تجري فيه تمرينات الفروسية، كما أن الغوري كان يحرص دائماً على استعراض قوة جيشه في هذا الميدان أمام سفراء الدول الأجنبية في مصر، وفي هذا يقول ابن إياس:" حتى يريهم فروسية عسكر مصر"[٥].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠٤.

(٢) ابن إياس، ج٤، ص٢٥٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٥٣؛ الشريدة، الجيش، ص١٢٣.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٥٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٩١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

- **فتن أمراء المماليك وجلبانهم .**

يلاحظ من خلال استقراء المصادر المعاصرة للأحداث، بأن الدافع الاقتصادي وسواء الأوضاع الاقتصادية في الدولة انعكس سلباً على تصرفات الجند مما أدى إلى قيامهم بالعديد من الفتن والنزاعات احتجاجاً على سياسة الغوري الاقتصادية.

فقد نظر الغوري إلى دولته وأوضاعها المالية المتردية، نظرة رجل دولة يحاول النهوض باقتصادها بالوسائل والسبل كافة، فعندما استلم الغوري الحكم سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) وجد خزائن الدولة خاوية[١]، ودولته وتجارتها واقتصادها مهددة من البرتغاليين، نتيجة تحويل طرق التجارة عن مصر والبحر الأحمر إلى طريق آخر رأى فيه البرتغاليون خلاصاً من وساطة مصر، وتحكمها في سلع الشرق الأقصى، وفرض الأسعار العالية عليها، مما شكل ارتفاعاً عالياً على الأسعار وعبئاً كبيراً على التجار الأجانب[٢]، وكان ذلك حافزاً من الحوافز التي دفعت الأوروبيين لاكتشاف رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند والشرق الأقصى.

أمام هذه الأوضاع الاقتصادية السيئة رأى الغوري أن السبيل لإنقاذ خزينة الدولة واقتصادها من الانهيار، أن يتبع سياسة مالية متقشفة، وتنفيذاً لهذه السياسة فقد تخلى عن كثير من العادات والتقاليد المتبعة في عهد من سبقه من السلاطين وضبط بذلك نفقات الدولة. ومن ملامح الالتزام بما ذهب إليه الغوري أنه لم يقم بدفع نفقة البيعة على وقتها، بل حاول تأجيل دفعها سنة ونصف حتى يتمكن من جمعها. ويشير ابن إياس في تاريخه بقوله:" وفي أواخر هذا الشهر أكمل السلطان نفقة البيعة على الجند وقد طاولهم نحو من سنة ونصف وهو يحتج بجمع

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤١؛ الملياري، أحمد زين الدين المعبري، (ت بعد ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، قدم له وحققه محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت،١٩٨٥م، ص١٥٣، ١٥٩؛ رمضان، صالح محمود،" الصراع البرتغالي في اليمن"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ص١٣٠- ١٥٠، العدد (٤٧)، السنة الثانية عشر، الكويت، ١٩٨٦م، ص١٣٦.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

المـــال"[1]. ونتـيجة لحاجـــة الغـــوري للمال قام بمصادرة أموال الأوقاف والمدارس. ففي سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م). ذُكر بأن السلطان يريد مصادرة أموال الأوقاف والمدارس وتوزيعها على الأمراء والمماليك في القاهرة[2].

كمـــا خـــرج الغـــوري عن عادته بما يتعلق بالهدايا والعطايا التي اعتاد الجند عليها في مناســـبات عديـــدة، كأن يرزق مولوداً ذكراً، بل اكتفى بإعلان الزينة ورفع الأعلام، لعله يساهم بتخفيف المعاناة الاقتصادية التي منيت بها الدولة[3].

أمّـــا فـــيما يتعلق برواتب الجند ومصروفاتهم من العليق واللحم اليومي (بدل أرزاق) فلم يســـتطع السلطان أن يلتزم بدفع الجامكية لهم في وقتها المحدد. كما لم يرضخ السلطان لابتزاز الجـــند له بدفـــع مبالغ محدودة من الأموال في وقت الاضطراب، وإنما دفع لهم بما يتلاءم مع الوضـــع المالـــي لخزيـــنة الدولة[4]. ولم يجد السلطان حلاً سوى تأخير دفع الرواتب للجند لمدة معيـــنة، محاولاً إعطاء نفسه مهلة لجمع هذه الأموال، مما أوجب على السلطان فرض مزيد من الضرائب وزيادة الإيجارات على الأهالي لمدة عشر شهور مقدماً، إلا أنه فشل في هذه السياسة ولـــم يســـتطع تســـديد ما عليه من رواتب للجند، لأنه لا يملك الأموال اللازمة[5]. وكانت حجة الجنود بهذه الزيادة أن رواتبهم قليلة ولا تكفيهم لشراء بيت أو إسطبل أو كسوة[6].

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥، ٦٥؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١،ص٣٤٦، ٣٤٩.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٤٠.

(4) قاسم، قاسم عبده، الأيوبيون والمماليك، عَيْن للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الرياض، ١٩٩٥م، ص٢٠٩؛ موير، وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٨٢.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥، ١٦.

(6) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٦٩، ٤٨٣، ٤٨٥.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لقد أدت الأوضاع السياسية الداخلية السيئة وحاجة السلطنة إلى الجند، إلى الإخلال بطريقة تربـية المماليـك وسرعة تخريجهم من الطباق. فنلاحظ أن السلطان الغوري قام بتخريج أربعة أفـواج من مماليك الطباق[1] في السنوات الواقعة ما بين (٩١٢-٩٢٢هـ/ ١٥٠٦- ١٥١٦م)، بمـدة تراوحـت مـا بين (٣- ٤) سنوات للدفعة الواحدة، كما تراوحت أعداد الخريجين للدفعة الواحـدة ما بين (٣٠٠- ٥٠٠) مملوك[2]، مما أثّر سلباً على انضباطهم. كما تجدر الإشارة إلى أن انخفاض مستوى التعليم في صفوف المماليك، وكبر سنهم " كبار بذقون"[3]، قد زاد الأوضاع سوءاً إبان فترة السلطان الغوري.

وجـرت العـادة خلال الفترة المملوكية الأولى، أن ينشأ المماليك في أماكن خاصة تدعى الطباق لفترة زمنية معينة، يمنعون من النزول إلى أحياء القاهرة والسكن بها، ولكن خلال الفترة الثانية هجر المماليك الطباق وسكنوا في القاهرة، مما منحهم فرصة لسرقة الأسواق ونهبها[4].

وهـناك أمـر مهـم تسبب بتمرد وعصيان أمراء المماليك وجلبانهم وكان بسبب سياسة التفضـيل التـي اتبعها السلطان الغوري، حيث كان يفضل ويقدم مماليكه المشتروات على بقية المماليـك مـن القرانصة والسيفية. وبرجح أن تفضيل الغوري لمماليكه بحكم ولائهم الشخصي للسـلطان في حين يرى أن ولاء السيفية والقرانصة يعود إلى سلاطينهم السابقين. أمّا الرواتب والأعطيات فلم يساوِ السلطان الغوري بين مماليكه وبقية المماليك من القرانصة والسيفية، وكان يلجأ أحياناً إلى حرمانهم من تلك الرواتب والأعطيات[5].

---

(١) غرايبة، الرقيق العسكري، ص ١٣٥- ١٣٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٥، ٢٨٤، ٣٢٢، وج٥، ص١٣.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣١٧.

(٤) ابـن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٢؛ طقوش، محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٥٦٥.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٢، ٤٣١، طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٢٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أضـــف إلـــى ذلك أن السلطان حاول أن يجعل من المماليك القراصنة وقوداً للحرب التي دارت بيـــنه وبيـــن العثمانيين. ويبدو أن السلطان كان محقاً في هذا الإجراء، فقد أثبتت الوقائع الحربـــية (معـــركة مـــرج دابـــق) صحة ذلك وتمثل ذلك في خيانة كل من جان بردي الغزالي وخاير بك[1]،بغضاً ومكيدة بالغوري[2].

ومـــن الإجـــراءات الإدارية التي قام بها السلطان الغوري، أنه نقل بعض الموظفين من مناصب عليا إلى مناصب دنيا، ونفى بعضهم الآخر، مما دفع بالمنقولين إلى العصيان، ومثال ذلك النائب سيباي الذي نقل من منصب ولاية حلب إلى منصب أمير مجلس بالقاهرة[3].

ولا شك أن غياب فلسفة سياسية الحكم عند المماليك، أدى ببعض الأمراء إلى التمرد على السلطان ومحاولة الوصول إلى السلطنة بالقوة. فالأمراء كانوا ينظرون إلى بعضهم خشداشية أي زمـــلاء، وأن من حق كل واحد منهم أن يصبح سلطاناً. نذكر من ذلك تمرد وعصيان الدوادار مصـــر باي في قلعة القاهرة، ومحاولته امتلاك قلعة القاهرة سنة (٩٠٧هـــ/ ١٥٠١م)[4]. وهذا يظهر لنا أن كل أمير برتبة كبيرة كان يطمع بالسلطنة كغيره من الأمراء.

- **الأعراب في مصر والشام وعلاقاتهم بالدولة .**

- **القبائل العربية في مصر:**

---

[1] ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩.

[2] ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩-٣٠.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٠؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص١٨٢.

- ســـيباي: كـــان مـــن مماليك الأشرف قايتباي، وقد تقلد وظائف عديدة منها: نائباً لسيس، وأمير آخور، ونائباً لحلب، ونائباً لدمشق وقتل في معركة مرج دابق سنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦م)، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٤٣٢.

- أمـــير مجلـــس: هـــو الذي يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره، كما يتحدث باسمه مع الأطباء والكحالين، أنظر: القلقشندي، صبح أعشى، ج٤، ص٢٨؛ البقلي، التعريف بمصلحات صبح الأعشى، ص٥٠.

[4] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦- ٢٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

سكن مصر واستقر فيها العديد من القبائل العربية منذ عصور قديمة، نذكر من تلك القبائل:

١. بنو حرام:

بطن من جذام، بأرض مصر، وهم بنو حرام بن جذام بن عدي، وفيهم أفخاد وعشائر، ولا يعرفها إلا القليل من أهل مصر[١]. وقد ذكرهم ابن إياس في تاريخه سنة (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م):" وفيه قبض شيخ العرب نجم على شخص من العرب العصاة من مشايخ بني حرام يقال له علاء الدين قرطام، فلما قبض عليه قطع رأسه وأرسلها إلى القاهرة"[٢].

٢. العايد:

بطن من جذام من القحطانية، كانت مساكنهم تمتد بين بلبيس من أعمال مصر، إلى عقبة أيلة إلى الكرك من ناحية فلسطين[٣]. وعليهم درك الحاج إلى العقبة[٤].

٣. بنو عطية :

فرع من الكبابيش، وهم ينسبون إلى بني عقبة، وهم من مصر وقد نزلوا حول خليج العقبة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي[٥]، وقد ذكرهم ابن إياس ضمن أحداث

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق وتأليف، عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٦٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٥٥.

(٣) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٣٣٣؛ المقريزي، البيان والإعراب، ص ١٩- ٢٠.

(٤) القلقشندي، نهاية الأرب، ص٣٣٣.

(٥) المقريزي، البيان والإعراب، ص١٤٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سـنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م):" وكان العربان في غاية الفساد في البلاد الشامية من عربان بني عطية وبني عطا"[١].

٤. هوارة :

مـن ولـد هوار بن اوريغ بن بربر[٢]، ذكر أن منازلهم بالديار المصرية البحيرة، ومن الإسـكندرية غـرباً إلـى العقبة الكبيرة من برقة، وذكر القلقشندي أن منازلهم قد استمرت في البحيرة، فغلبهم على أماكنهم من البحيرة جيرانهم من زنارة، فخرجوا منها إلى صعيد مصر، ثم قوي أمرهم وأشتد بأسهم وكثر جمعهم حتى انتشروا في معظم الوجه القبلي[٣].

- القبائل العربية في الشام:

ذكرت المصادر العديد من القبائل العربية التي سكنت بلاد الشام في عصر دولة المماليك نذكر من تلك القبائل:

١. زبيد :

وهـي بطـن مـن قبيلة طيء عرب الجنوب، سكنت بغوطة دمشق ومرجها، وبحوران، وصـرخد[٤] وديارهم المرج والغوطة بدمشق إلى لائقة إلى لاهه إلى أم اوعال إلى الرويشدان

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٣٩٤.

(٢) المقريزي، البيان والإعراب، ص٥٨.

(٣) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢٠هـ/ ١٤١٧)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، حققه وقد له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٦٨.

(٤) القلقشندي، نهاية الأرب، ص٢٦٩؛ القلقشندي، قلائد الجمان، ص٨٢.

- حـوران: كـورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة ومزارع، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣١٧.

- صـرخد: بلـد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة، وولاية حسنة، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٤٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعليهم الدرك وحفظ الطرق[١] ومن هذه القبيلة تفرعت زبيد الأحلاف، وهم من بني زبيد، بطن مـــن القحطانـــية سكنوا الرحبة وامتدوا حتى وسط الشام[٢]. ويذكر ابن طولون سنة (٩١٦هـــ/ ١٥١١م):" أن الـــدوادار الكبـــير اردبش قد قتل منهم جماعة وهرب جماعات كثيرة وسبى من نســـائهم وأولادهـــم جماعات"[٣]. وكان على عرب زبيد القيام بأعمال الحراسة وحفظ أطراف الدولة[٤].

٢. بنو صخر :

بطـــن مـــن جذام من القحطانية ومنهم الدعجيون والعطويون والصويتيون مساكنهم ببلاد الكرك، كانوا أخلاف آل فضل من عرب الشام، وهم بطون كثيرة سكنوا في معظم أجزاء شرقي الأردن[٥].

٣. بنو عقبة :

بطـــن من جذام من القحطانية، وهم بنو عقبة بن حرام بن جذام، ديارهم من الشوبك إلى جِسمى إلى تبوك إلى تيماء إلى الحريداء وهي شرقي الحجاز، وقال الذهبي في العبر : ديارهم مـــن الكرك إلى الأزلم في برية الحجاز وعليهم درك الطريق ما بين المدينة المنورة إلى حدود غزة من بلاد الشام[٦].

---

(١) القلقشندي، قلائد الجمان، ص ٨٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الفكر، ج١٢، ص١٤٠.

- الرحبة: قرية من قرى دمشق، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٣٣.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٤٤.

(٤) القلقشندي، نهاية الأرب، ص٢٦٩.

(٥) القلقشـــندي، نهايـــة الأرب، ص٣١٣؛ القلقشندي، قلائد الجمان، ص٦٦، ٦٨؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٣٨.

(٦) القلقشندي صبح الأعشى، ج١٢، ص١٣٦، ص٣٦٤؛ المقريزي، البيان والإعراب، ص ١٨- ١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٤. آل فضل :

وهـــم من آل ربيعة من طيء، كانت لهم إقطاعات واسعة في نيابة حماة، وقد تمتعت هذه القبيلة بشهرة كبيرة بسبب امتداد نفوذها على رقعة واسعة من الشام إلى العراق، إضافة إلى أنها أكبر القبائل في بلاد الشام من الناحية العددية[١]، ويبدو أن عرب آل فضل قد قاموا بالعديد من الفتـــن فـــي الـــبلاد مما دفع بنائب دمشق ونائب حمص سنة (٩١٦هـــ/ ١٥١٠م) بقتلهم وأخذ جمالهم وأغنامهم[٢].

٥. بنو لام :

وهم بنو لام بن عمرو بن طريف بن قطرة بن طيء[٣]، وكانت منازلهم بالمدينة المنورة أويـــثرب[٤]، ويذكـــر ابن إياس في تاريخه أن بني لام كانوا في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي ينزلون بلاد الكرك[٥].

٥. آل مرا :

من آل ربيعة من طيء[٦]، ديارهم من بلاد الجيدور والجولان إلى الزرقاء والضليل إلى بصـــرى ومشـــرقاً إلى الحرة المعروفة بحرة كشت قرب مكة إلى شعباء إلى نيران مزيد إلى

---

(١) العمـــري، الـــتعريف بالمصطلح الشريف، ص٧٩؛ السيد، محمود، تاريخ عرب الشام في العصر الملوكي، مؤسســـة شـــباب الجامعـــة، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص٤٦؛ جبران، نعمان، مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨١م، ص١٧٣.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٣٩- ٣٤٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الفكر، ج١، ص٣٧٦.

(٤) السويدي، أبو الفوز محمد أمين البغدادي (ت ١٢٤٦هـــ/ ١٨٣٠م)، سبائك الذهب في معرفة قبائل وأنساب العرب، منشورات مكتبة بسام، العراق، (د. ت)، ص٥٩.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٣٢.

(٦) القلقشندي، نهاية الأرب، ص١١١؛ السويدي، سبائك الذهب، ص٦١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الهضـــب[1] وقد تشعب آل مرا إلى شعبٍ كثيرة وهم: آل أحمد، وآل بقرة، وآل نمي، وآل شما، وآل منيحر[2]، وقد امتدت ديارهم إلى مكة، ثم يعودون بعد ذلك إلى الشام[3].

أما بالنسبة لعلاقة الأعراب في مصر والشام مع الدولة، فقد استطاع سلاطين المماليك أن يصـــلوا إلى اتفاق طويل مع القبائل العربية (البدو والعشير)، وقد بذلوا جهوداً كبيرة نجحوا من خلالهـــا فـــي التوصـــل إلى اتفاق سلمي وتعاوني مع تلك القبائل، وتمكنوا من إدخالهم ضمن مؤسسات السلطنة المملوكية، عن طريق إمرة العرب التي جعلت مرتبة عسكرية ضمن الجهاز الإداري فـــي الدولة، وبهذا أصبح أمراء القبائل العربية كأصحاب مناصب رسمية في الدولة[4]. وممـــا ساهم في إنجاح هذا الاتفاق أمرين، الأول: وجود سلطة مركزية قوية تمتد سلطتها على مـــناطق واســـعة، والأمـــر الثانـــي: استقطاب السلطة المملوكية لكافة القبائل والعشائر القوية، لمساندتها في الحفاظ على سلطتها وهيبتها[5].

وقد اعتبر أمير العرب من جماعة أرباب السيوف في مصر وكذلك بالنسبة لعربان الشام، وقد أرتبط أمراء العرب بالسلطان مباشرة، فالسلطان هو الذي يعين أمير العرب والأمراء على

---

(1) القلقشـــندي، نهايـــة الأرب، ص١١٢؛ القلقشـــندي، قلائد الجمان، ص٨١، القلقشندي،صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٨-٢١٠.

(2) القلقشندي، نهاية الأرب، ص٩٧، ٩٨؛ القلقشندي، قلائد الجمان، ص٧٩- ٨٠.

(3) القلقشندي، قلائد الجمان، ص٨١، السيد، تاريخ عرب الشام، ص٥٧.

(4) العمري، شهاب الدين بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق دورتيا كرافولكسي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٦.

- الـــبدو: يصـــنف آشـــتور "الـــبدو" فـــي الدولة المملوكية إلى أقسام ثلاثة، فقسم ما زال يترحل، وقسم نصف مســـتوطن، أمـــا القســـم الثالث- العشير- فمؤلف من فلاحين أبقوا على تنظيمات أسلافهم العشائرية،أنظر: آشـــتور، الـــتاريخ الاقتصـــادي والاجتماعي للشرق الأوسط، ترجمة عبد الهادي عبله، مراجعة أحمد غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٧٣- ٣٧٤.

- العشير: جمعها عُشران، لفظ يطلق على بدو الشام، كما يطلق على سائر الدروز، أنظر: الحياري، مصطفى، الإمارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧م، ص١١٣.

(5) العمري، قبائل، ص١٨.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مختلف القبائل[1]، وذلك من خلال إرسالهم تقليداً سلطانياً وخلعاً إلى الأمير. مثال ذلك ما أرسله السلطان الغوري إلى خليل بن إسماعيل بن شبان شيخ عربان جبل نابلس، وذلك سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)، مع ملاحظة تعهد الشيخ خليل بدفع مبلغ من المال للسلطان[2].

ومن المهام التي أوكلت إلى العربان في مصر والشام كما يذكر ابن فضل الله العمري في كتابه (مسالك الأبصار) بقوله:" ومنهم بممالكنا – مصر والشام – حفظة الدروب، والقومة بخيل البريد، والحمّلة للسياق في غالب المملكة"[3]،وهذا يعني أن العربان قد عملوا على حفظ الدروب والمسالك والطرقات من غارات القبائل البدوية المختلفة وقطاع الطرق، فبنوا عقبة كان عليهم درك الطريق بين مصر والمدينة المنورة إلى حدود غزة، بالإضافة إلى درك الطريق من البلقاء إلى الديار الحجازية[4]،كما شاركت عرب آل فضل وآل مرا وآل علي بتقديم الخيول الكثيرة لسلاطين المماليك، وخصوصاً الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤١م) [5]، وقاموا بخفر البلاد والدفاع عن حدودها، وقد أشار إلى ذلك القلقشندي في نسخة تقليد بإمرة آل فضل سنة (٧١٣هـ/ ١٣١٣م) [6].

وقد كان للقبائل العربية دور واضح ومهم في عهد السلاطين المماليك الذين سبقوا السلطان الغوري، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن عربان بني عقبة الذين كان عليهم

---

(١) الحياري، الإمارة الطائية، ص٨١- ٨٢.

- أرباب السيوف: هم العسكريون، وغالبهم من الأمراء، وسموا بذلك الاسم لتربيتهم تربية عسكرية على القتال وفنون الحرب ومنهم أمراء المئين وأمراء الألوف وأمراء المقدمون والآتابك وأمير الجيوش وأمير الأمراء، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٥.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٨٦.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ص٦٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤٨؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٣٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص١٣٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص١٢٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حراسة المسالك والطرق، كانوا عوناً وسنداً للسلطان برقوق بعد خروجه من الكرك، وساعدوه على محاربة أعدائه[1].

وقد استمر هذا الدور الإيجابي والسلمي للعربان اتجاه المماليك ودولتهم حتى عهد السلطان الغوري، وكان على عرب آل مرا درك البلاد من حوران إلى البلقاء، وقد التزموا بذلك، ففي سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م) قام أمير آل مرا وجماعته بحراسة قافلة الحج الشامي حتى مدينة أذرعات باتجاه مدينة دمشق عبر أراضي منطقة شرقي الأردن[2]، أما عرب بني لام فكانوا أشد شوكة ومراساً في منطقة شرقي الأردن، وأكثرها فساداً وإجراماً، وقد عاثت في الأرض فساداً. حتى أنها أعيت دولة المماليك لذلك حرصت الدولة على استمالتهم حتى تأمن شرهم، فأوكلت لهم مهمة حراسة قافلة الحج الشامي والطرق التجارية من العابثين، ففي سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) أرسل أميرهم بعض رجاله لحراسة قافلة الحج الشامي حتى مدينة الحسا[3].

وأحياناً كان يضطر السلاطين المماليك حفاظاً على استقرار بلادهم، وتفادياً لأخطار العربان المفسدين، أن يدفعوا الأموال لقبائل العربان، وهذا ما ذكره ابن طولون أنه في سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) حضر إلى دمشق " مسلّم كبير بن لام، وعسّاف كبير آل مرا، حلفا بدار

---

(١) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، عني بتحرير نصه ونشره قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦م، ج٦، ص١٤٠؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٣٧.

- برقوق: هو السلطان الظاهر برقوق بن انص بن عبد الله الجركسي العثماني، وكان مولده سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، وولي السلطنة سنة (٧٨٤- ٧٩١هـ/ ١٣٨٢- ١٣٨٨م)، انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي، الشيخ محمد العثماني، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦م، ص٥٧٧.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٥٧، ٢٩١.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٩١؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص١٧٦.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

السعادة بحضرة كبار المباشرين – الموظفين – أن يحفظا الحجاج والطرق على العوائد القديمة" وأشهد عليهما بذلك[1]. وقد كانت هذه الأموال رسوماً مقررة على خزائن مصر والشام، واستمر الجراكسة يدفعونها حتى أصبحت عادة جارية تدفع كل سنة[2].

كما لجأت السلطنة المملوكية في أواخر عهدها إلى تجنيد القبائل العربية، ولم يتخلف العرب في مصر والشام عن الوقوف مع الجيش الملوكي، فمثلاً في سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) توجه الأمير محمد بن ساعد إلى القاهرة وقدم الهدايا من المال والخيول والسلاح وغيرها للسلطان.

وذكر ابن إياس أن حضور هذا الأمير العربي من الشام إلى مصر كان "من جملة سعد السلطان قانصوه الغوري"[3]. كما أن دولة المماليك فرضت على هذه القبائل في مصر والشام الأموال لتجهيز التجاريد العسكرية لقتال العثمانيين في المناطق الحدودية، وقد أشارت المصادر إلى ذلك في السنوات (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م)[4]، و(٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)[5]، و(٩٢١هـ/ ١٥١٥م)[6].

---

(1) أعلام الورى، ص٢١٦.

(2) خليل، سعيد صالح، التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م، ص١٣٠- ١٣١.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٤٥- ٢٤٦.

- ابن ساعد: هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير أبي سيف مدلل، الشهير بابن ساعد الغزاوي، بتخفيف الزاي – العجلوني، شيخ البلاد وكبير البر وحوران، انظر: ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٥٥، ٣٦٠.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٥١.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٨.

(6) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٤٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وبلغـــت المبالغ التي جبيت من عشير جبل نابلس وحده مائة وأربعة وعشرين ألف كنفقة للمشاة، كما جمعت الأموال من عشير: غزة، وصفد، وطرابلس[١].

إلا أن العربان لم يكونوا جنداً نظاميين في الجيش المملوكي بل كانوا يساعدون الدولة في حروبها[٢]، ومن أمثلة ذلك أنه في سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) أشرك السلطان الغوري جماعة من فرسان العرب ليتوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر في حربه ضد العثمانيين[٣].

ويـــبدو أن هـــناك أســـباباً معينة ألزمت الدولة إلى تجنيد العربان، ويعود ذلك إلى سوء الأحـــوال السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة، فلم يعد بإمكانها شراء المماليك وتجنيدهم بالإضافة إلى رغبتها بأن تضمن ولاء العربان لها، وهناك أمر آخر مهم وهو أن جيش المماليك قلـــت أعـــداده بســـبب الطواعيـــن والأوبئة التي أصابت مصر والشام وقتلت أعداد كبيرة من الجنود[٤].

وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين المماليك والعربان، وعلى الرغم من الامتيازات التي منحـــتها الســـلطنة المملوكية للقبائل العربية في مصر والبلاد الشامية إلا أن هذا لم يمنعها من اغتنام الفرص المناسبة للخروج على الدولة.

فضعف السلطة المركزية المملوكية أدى إلى استمرار في العصيان والتمرد، مما أدى ذلك إلى انتشار الفتن وحالة من الفوضى وعدم الاستقرار، ولم تكن قوافل الحاج المصري والشامي لتســـلم من هذا العبث، وتعرضت للقتل والسلب، ففي سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) قام عربان بني

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٨، السيد، تاريخ عرب الشام، ص١٥٥، ١٧٤.

(٢) السيد، تاريخ عرب الشام، ص١٥٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣٢- ١٣٣.

(٤) غوانمة، الطاعون والجفاف، ص٧٤- ٨٣.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لام بقطع الطريق ومهاجمة الحجاج عند الحسا[1]. ولم تفلح الحملات المتكررة ضد العربان في كف أذاهم عن قوافل الحجاج، فقد استأنفت عربان بني لام نشاطها وقامت بقطع الطريق الواصلة إلى دمشق ونواحيها، مما ألزم الأمير جانبلاط نائب الغيبة بدعوة الأمراء والأجناد بدمشق للتأهب للقتال[2]. كذلك خرج الأمير دولتباي اليحياوي على مشارف غور الأردن في سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) حيث عرب بني صخر ليأتوا بأغنامهم وخيولهم، فأخذوا منهم ما استطاعوا حمله، إلا أن المنهزمين من بني صخر هاجموهم بالنشاب، فأصيب من العسكر عدد كبير وقتل دولتباي[3].

وفي سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) "رجع الدوادار الكبير اردبش من بلاد حوران وقد أوقع بعرب زبيد، وقتل منهم جماعة وسبي من نسائهم وأولادهم، أما الإبل والبقر والغنم فأخذ شيئاً كثيراً[4]. كذلك سافر نائب دمشق – سيباي – إلى بلاد حوران في سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) لتخريب بلاد ابن ساعد والقبض عليه[5]، وهذا ما أشار إليه ابن طولون في تاريخه بقوله: فقد هاجم النائب بلاد ابن ساعد وغيره "بالحرق، وتخريب الأمكنة، وإتلاف الزروع، والمغلات والحيوانات، وقتل منهم جماعات"[6].

ويبدو أنه نتيجة لما قام به نواب الشام من التخريب والقتل في بلاد ابن ساعد وبلاد ابن الحنش مقدم البلاد البقاعية في دمشق، قد دفعهم إلى زيارة نائب الشام وقاما بتقديم الخيول له

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٣٣.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٤٠؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص١٣٦- ١٣٧.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٦٤.

(٤) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٤٤.

(٥) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٣٥؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص١٩٤، ١٩٦.

(٦) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٤٣.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

كهدايا، وذلك سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) [١] يضاف إلى أن الأمير محمد بن ساعد زار السلطان. الغـوري فـي القاهرة في السنة ذاتها، وقدم له الهدايا التي اشتملت على الأسلحة والخيول[٢]، تعبيراً عن ولائه وطاعته للسلطان.

وقـد حـاول السلطان الغوري في سياسته الهادفة إلى الحد من خطر العربان، وتهديدهم المسـتمر لطـرق التجارة والحجاج، ففي سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) قام نواب السلطنة بإرسال العساكر إلى مدينتي معان والحسا لاستقبال قوافل الحجاج وحراستها من اعتداءات العربان[٣]، وخرجت في سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تجريدة من القاهرة لتأديب بني لام في الكرك[٤].

وفي سنة (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م) استأنفت التجاريد العسكرية نشاطها للحد من خطر عربان بني لام، مما دفع بالسلطان إلى كتابة عدة مراسيم إلى نائب الشام ونائب طرابلس ونائب صفد، حتى يكونوا يداً واحدة أمام هذه الأخطار، ويقضوا على عربان بني لام[٥]، وفي سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) عمر السلطان الغوري أبراجاً بالعقبة مسكناً لجنوده لحماية التجار والحجاج من خطر

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٥٥، ٣٦٠.

- الـبقاع: موضـع قريـب من دمشق، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج١، ص٤٧٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٥- ٢٤٦.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٧٧.

- معـان: مدينـة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص١٥٣.

- الحسـا: موضع بالشام بالقرب من الكرك، انظر: البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، مراصـد الاطـلاع على أسماء الأمكنة والبقاع تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤م، ج١، ص٤٠٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٢.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

العربان في تنقلاتهم ما بين مصر والديار المقدسة[1].

أمـــا فيما يتعلق بالقبائل العربية بالحجاز، فإننا نلاحظ اعتداءات وغارات القبائل العربية على قافلتي حجاج بيت الله الحرام: المصرية والشامية، وكانت هذه الغارات تتم في بلاد الحجاز أو في الأراضي المصرية أو الشامية.

ومـــثال ذلـــك ما قام به عربان بني إبراهيم من اعتداءات على حجاج بيت الله الحرام في مدينتـــي رابـــغ[2]، والعقبة سنة (٩٠٨هـــ/ ١٥٠٢م)[3]. أضف إلى ذلك أن عربان بني إبراهيم قـــاموا أيضـــاً بمهاجمة مدينة جدَّة، وقد وصفهم ابن فرج بقوله:" عربانها البغاة وبدوانها الطغاة وهم بني إبراهيم ومن تبعهم من أهل الفساد"، وقد أدت الهجمات المتكررة لمدينة جدّة إلى البدء في بناء سور لها. وقد تم إنجازه سنة (٩١١هـــ/ ١٥٠٥م)[4].

- **فئات المجتمع في مصر وبلاد الشام وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة .**

كان المجتمع في مصر وبلاد الشام في عصر دولة المماليك مجتمعاً متعدداً، فقد تألف من عدة فئات متميزة عن بعضها البعض في صفاتها ومظاهرها، ونظرة الدولة لها ومقدار ما تمتع به هذه الفئة من حقوق وامتيازات.

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ص١٥١- ١٥٢٥؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٠٩؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص٢٣٤.

(٢) ششـــه، نوال سراج، جدة في مطلع القرن العاشر الهجري، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦م، ص١٦.

- رابغ: واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة دون عزور، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص١١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٨.

(٤) ابـــن فرج، عبد القادر، (ت ١٠١٠هـــ/ ١٦٠٢م)، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق أحمد بن عمر الزيلعي، (د. م)، ١٩٨٧م، ص٢٤.

- جـــدة: بلـــد علـــى ســـاحل مكة شرفها الله تعالى، بينهما أربعون ميلاً، أنظر: الحميري، محمود عبد المنعم (ت ٧٢٧هـــ/ ١٣٢٦م)، الـــروض المعطـــار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٥٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وانقسم هذا المجتمع في العصر المملوكي إلى ثلاث فئات رئيسة هي:

١. فئة المماليك :

انقسمت هذه إلى فئتين رئيسيتين هما: فئة الأمراء والفئة الثانية الأجناد[١]،وقد كان المماليك يشكلون الفئة الحاكمة في هذا المجتمع المصري والشامي وانفردت بالسلطة والحكم، وقد ظلت هذه الفئة تعيش بمعزل عن بقية فئات المجتمع، وينظرون إلى الناس نظرة دونية وأقل منهم درجة[٢].

حرص المماليك أن تكون علاقاتهم بالمجتمع المحلي حسنة، واتسمت هذه العلاقة بشيء من الإيجابية، لأن بعض نواب السلطنة حاولوا إنصاف الناس ممن يظلمهم. كما أن السلطان استعان بإدارته للدولة بأمراء اتصفت سيرتهم بالعدل والإنصاف، ومن هؤلاء الأمير قرقماس الذي وصف بأنه:" لين الجانب وعنده تواضع"[٣]، وفي حالة وجود نائب ظالم، كان يتعرض هذا النائب للتوبيخ، وهذا ما حدث سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، عندما تعرض نائب دمشق للتأنيب من الحاجب الكبير، لأنه سلط أربعة أشخاص على الناس في الظلم[٤].

غير أن هذه المعاملة من قبل المماليك لم تستمر، نتيجة للفساد الذي حل في جميع مرافق الدولة، وأدى إلى فساد فئة المماليك مما كان له الأثر المباشر على المواطنين، فمنذ بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي، أصبح نواب السلطنة يتسلمون مناصبهم بعد دفع مبلغ معين من المال للخزينة السلطانية، وفي هذا يذكر ابن إياس سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م):" وأخلع

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥١.

(٢) زيتون، عادل، تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، ط٤، ١٩٩٢م، ص١٣٩؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٢٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩٧.

(٤) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٩٦- ١٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علـــى شخص من الأمراء كان بطالاً يقال له جانم بن ولي الدين، واستقر به نائب طرابلس ... وقيل أنه سعى في نيابة طرابلس بستين ألف دينار"[١].

كذلـــك تعرض السكان للمصادرات من قبل السلطان الغوري، من ذلك ما يقوله ابن إياس فـــي حـــوادث سنة (٩١٤هـــ/ ١٥٠٨م):" فحصل للناس الضرر الشامل" ثم يضيف ابن إياس قـــائلاً:" وأنـــا من جملة من وقع له ذلك" أي أنه كان من جملة من صودرت إقطاعاتهم في تلك الســـنة[٢]، إلا أن الســـلطان الغـــوري أمر بإعادة إقطاعه إليه في العام التالي سنة (٩١٥هـــ/ ١٥٠٩م)[٣].

ولـــم تقتصر هذه المصادرات على الأموال والبيوت وغيرها من العقارات، وإنما امتدت إلى غيرها حسب حاجة السلطان، ومن ذلك يذكر ابن إياس في حوادث سنة (٩١٩هـــ/١٥١٣م) أنه عندما اشتدت حاجة السلطان إلى الأخشاب لبناء السفن في السويس لمحاربة البرتغاليين، فإن رجالـــه "صـــاروا يقطعوا أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد، ويرسلونه إلى السويس لأجل عمارة المراكب هناك"[٤]. كما تعرض السكان لعمليات النهب والسرقة من قبل الجنود المماليك كما حدث سنة (٩٢٠هـــ/ ١٥١٤م) ومن هذا يقول ابن إياس:" نزلوا في بيوتهم ونهبوا أمتعتهم وفسقوا في حريمهم وأولادهم وعيالهم"[٥].

٢. فئة المتعممين :

وتشـــمل هـــذه الفـــئة أرباب الأقلام من أصحاب الوظائف الديوانية، والفقهاء، والعلماء، والأدبـــاء، والكـــتاب، وأهـــل التصوف، وطلاب العلم، وقد حظيت هذه الفئة برعاية واحترام

---

[١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٣٠.

[٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣٦.

[٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٧٣.

[٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٥٥.

[٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

سلاطين المماليك، فقربوهم إليهم ومنحوهم العديد من الامتيازات[1]. ومثل ذلك سعت هذه الفئة ومـــن بينهم القضاة إلى المصالحة بين المماليك المتنازعين، ففي سنة (٩٠٦هـــ/ ١٥٠٠م) قام قضـــاة حلـــب بالمصـــالحة بيـــن نائب السلطنة والأمير قصروه (الذي كان ينوي إعلان نفسه سلطاناً)[2].

وقد تلقى المتعممون لقاء أعمالهم مرتبات كبيرة من قبل المماليك تكفل لهم معيشة مناسبة مـــن حيـــث الرفاهـــية والـــترف. إلا أنهـــم تعرضوا للمصادرة من قبل السلطان الغوري سنة (٩٠٧هـــــ/ ١٥٠١م)[3]؛ ويبدو انه اضطر لذلك كي يتجاوز الأزمة المالية، فالخزينة السلطانية كانت خالية[4].

٣. فئة العامة :

وقـــد تألفـــت هـــذه الفئة من: التجار، والحرفيين، والعوام، والزعر، والفلاحون، والبدو والعشير[5].

واتســـمت العلاقات بين السلطان والعامة من السكان بالإيجابية أحياناً، فنرى أن السلطان كان يتقرب منهم في المناسبات الدينية فيقوم بتوفير المواد الغذائية إليهم كاللحم والقمح والطحين

---

(١) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٢٨؛ زيتون، المماليك، ص١٤١.

(٢) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٣٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٥.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤.

(٥) ابـــن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٤٧، ٢٩٣؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٥٠؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٢٨.

- الزعر: مفردها الأزعر ويطلق عليهم أحياناً: الشاطر أو العايق، وهم يعرفون بمصر بالحرافيش وفي العراق بالعيارين، انظر: برغوث، عبد الودود يوسف،" جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر"، مجلـــة الحوليـــات الأثـــرية السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، المجلد (٢٣)، (ج١+ ج٢)، دمشق، ١٩٧٣م، ص١٩٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والسكر والأغنام، وخاصة في شهر رمضان المبارك، وكان هذا الأمر يجري سنوياً[١].

ومـــن مظاهر اهتمامه بالعامة، الإفراج عن بعض السجناء الذين لم يرتكبوا جرائم كبيرة، مستغلاً بذلك الشعور الديني للعامة في شهر رمضان المبارك[٢].

يضـــاف إلـــى ما سبق أن السلطان الغوري عمل على رفع الظلم عن العوام، فكان حينما تصله الشكاوي يستجيب لذلك ويصدر أوامره برفع الظلم عنهم، إلا أن المتنفذين في الدولة كانوا يهملون تلك الأوامر، ويؤكد ما ذهبنا إليه المؤرخ المصري المعاصر للأحداث ابن إياس في سنة (٩١٤هـــ/ ١٥٠٨م) بقوله:" إنَ السلطان نادى في القاهرة بأن أحداً من الناس لا يدافع في أحد ولا يأخذ شيئاً بغير حق وأن من ظُلم فعليه بالأبواب الشريفة فارتفعت الأصوات له بالدعاء". ثم يضـــيف قـــائلاً:" ولـــم يتم ذلك وعاد كل شيء إلى حاله"[٣].كما أن الكرمي وصف لنا الأحوال بصورة أخرى إذ يقول:" واتخذ مماليك لنفسه، فصاروا يظلمون الناس، وأظهروا الفساد وصار يعفي عنهم ويسامحهم"[٤]. وهذا النص يشير إلى أن الغوري لم يتخذ سياسة حازمة اتجاههم.

وأظهـــرت الدولـــة اهتماماً بعرفاء الحارات وهم الذين يجمعون الأموال والضرائب من الأهالـــي، وندلل على ذلك من أن نائب دمشق ألبس عرفاء الحارات الخلع في سنة (٩١٠هـــ/ ١٥٠٤م)[٥]. واســـتمر تنظـــيم عرفاء الحارات فيما بعد ونلحظ ذلك من أحداث سنة (٩١٨هـــ/ ١٥١٢م)، فـــبعد معركة مرج دابق تقدم السلطان سليم إلى دمشق، فقام عرفاء الحارات بتسليم المدينة إليه[٦].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٦٥، ١٩٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٢٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣٤.

(٤) الكرمي، نزهة الناظرين، ورقة ٥٥أ.

(٥) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٠٩.

(٦) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٦٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبالمقـابل كانـت العامـة فـي مصر وبلاد الشام ينظرون إلى فئة المماليك من الحكام وأصحاب الإقطاعات، نظرة الريبة والشك والخوف، ومع ذلك نجد أحياناً أن هذه العلاقة كانت جـيدة في أحيان أخرى، وقد تمثل ذلك بإقامة الولائم المتبادلة بين أهالي الصالحية والنائب في دمشق، وقد حدث هذا سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م)[١].

وفـي نفـس السـنة قام الزعر (وهي تنظيمات اجتماعية من العامة) في ميدان الحصى، والقبيـبات، والشاغور، بعمل ولائم للأمير أزدمر دوادار نائب دمشق[٢]. وقد استمرت العلاقة قوية بين رجال السلطنة المملوكية والزعران، فقد حرص المماليك على أن يكون ولاء الزعران للسـلطان الغوري، ففي سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) قام قاضيا: الحنفية، والمالكية، ومتسلم النائب بتحليفهم على القرآن الكريم بإخلاصهم للسلطان الغوري[٣].

كمـا عمـد الـنواب والأمراء إلى تقوية علاقتهم بالزعران، ومما يؤكد ذلك أن السلطنة اسـتعانت بزعـران دمشق، فقاموا بنجدة نائب الغيبة، وظهر ذلك في أحداث سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) حيث خرج جماعة من الزعر مدداً للنائب في قتاله ضد البدو[٤]، وسبب ذلك يعود إلى قـوة تنظيم الزعر وقد برزت أهميتهم كذلك مشاركتهم السلطنة باحتفالاتهم الرسمية وباستقبال النواب الجدد[٥].

---

(١) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٦٣.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٥٢.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٤) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٣٠؛ لابدوس، ايرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٦٤- ٢٦٥.

(٥) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٤٥؛ العلبي، أكرم، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٢م، ص١٠٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد كان للزعران دور اتصف بالسوء وأذية الأهالي وحتى المماليك أنفسهم، فقد استخدمهم المماليك أحياناً لابتزاز الأموال من الأهالي[1]. كما قاموا بالنهب والاعتداء على ممتلكات المماليك، وقد أشار ابن طولون في مفاكهة الخلان بقوله:" قاموا بنهب دوادار السلطان والحاجب"[2].

فمن هنا نلحظ أنهم يسيئون للنظام في بعض الأوقات وكان لابد من عقابهم، لذلك اتخذت الإدارة المملوكية موقفاً حازماً اتجاه هؤلاء الزعران، فقامت بتوسيطهم[3]، وأحياناً أخرى بشنقهم[4]. ومثال ذلك قيام (أبو قورة) دوادار النائب بإلقاء القبض على زعران ميدان الحصى (ابن الاستاذ) واثنين من معاونيه وتوسيطهم[5]. كما أقدم المماليك على عقوبات جماعية لسكان الأحياء التي يزداد فيها نشاط الزعران ضد السلطنة، ومثال ذلك إحراق المماليك لحي الشاغور بأكمله سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م)[6].

إلا أن هذا التقارب بين العامة والسلطة الحاكمة لم يدم طويلاً، فنرى ظلم المماليك للأهالي من خلال عدة أمور، ففي سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) أقدم السلطان الغوري على شراء القمح من الأسواق المصرية وإرساله إلى الأسواق الشامية لكي يخفف من الغلاء بالديار الشامية، ويؤكد ذلك النص الآتي:" ويرسله إلى الشام فإنه كان بها غلاء عظيم وقالوا الله يهلك من يقصد الغلاء

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٩٥؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص١٧٥.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج٢، ص٢٦، ٢٧؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص٢٦٣.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٠٤؛ العلبي، دمشق، ص١٠٧.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢١٢، ٢١٤.

(5) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٦٧؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص٢٦٢.

- التوسيط: شكل من أحكام الإعدام في العصر المملوكي، وطريقته بأن يعرى الشخص من الثياب ثم يشد إلى خشبه مطروحة على الأرض ويضرب بالسيف تحت سرته بقوة، ضربة تقسم جسمه إلى نصفين، فتتدلق أمعاؤه إلى الأرض، انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٤٨؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٨١.

(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٦٠- ٢٦١؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص١٦٧- ١٦٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إلـــى المســـلمين فسمع ذلك فتنكد"[1]. وكان السلطان الغوري يفرض الأموال على العامة عندما يرســـل الحملات العسكرية والتجاريد لمحاربة العثمانيين أو الفرنج الذين كانوا يهاجمون البلاد، أو فـــي إعـــداد الحمـــلات التي كانت ترسل لقمع البدو أو قتال التركمان أو حماية قافلة الحج الشـــريف[2]. أضـــف إلى ذلك كثرة المصادرات التي تعرض لها الأهالي، مما شكل هذا ظلماً وتعســـفاً بالمواطنيـــن، ومـــن لـــم يسدد التزاماته المالية، كانت السلطنة تقوم بشنقهم، ففي سنة (٩٠٨هـــ/ ١٥٠٢م) شنق رجل في حلب لأنه لم يقدم للنائب ما فرض عليه من أموال[3].

ومن مظاهر الظلم الاجتماعي التي عانى منها العامة أيضاً، والواقع على الفلاحين في ذلك الوقـــت تعرضهم للسخرة (أي العمل بدون أجر)، إذ نراهم يجبرون الفلاحين على جمع الدريس وتخزيـــنه فـــي بيوت الأتراك المماليك[4]، ويؤكد هذا أحداث شهر ذي الحجة سنة (٩١١هـــ/ ١٥٠٥م)، حتى أن أحد العامة قال شعراً:

اهرب يا تعيس والا يحملوك الدريس[5]

ولكـــن مقابل هذه التعديات من الجانب المملوكي لم يقف العامة مكتوفي الأيدي، فقد كانوا يقومون بالاحتجاج على هذه المظالم بعدة وسائل، ومن بينها أنهم كانوا يقاتلون النائب ويطردونه من المدينة إذا اضطروا إلى ذلك، نذكر من ذلك ما حدث في السنوات: (٩٠٧هـــ/١٥٠١م)[6]،و

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٢- ٣٠٣؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٦٤.

(٢) ابـــن طولـــون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٨٩؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص٩٩- ١٠٠؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص٢٦٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٢.

(٦) لابدوس، مدن إسلامية، ص٢٥٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

(٩١١هـ/ ١٥٠٥م)[١]، وقد تكرر هذا سنة (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م) في الكرك، وسنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) في صفد[٢].وأحياناً أخرى كانوا يقومون برجم النائب أو المحتسب، وهذا ما حدث سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م) حيث قام العامة برجم نائب دمشق بسبب ظلمه في جباية سبعة أشهر مقدماً من أملاك أهل دمشق[٣]. كذلك قاموا برجم المحتسب العلائي بن القيس بسبب إهماله وقلة المعروض من القمح وكان ذلك سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م)[٤].

أما فيما يتعلق بفئة التجار وعلاقتهم بالسلطنة المملوكية، فقد لعبت التجارة دوراً هاماً في فترة العصور الوسطى، وكانت رافداً مهماً من روافد الاقتصاد المملوكي، ولذلك عني المماليك بهذا الرافد عناية كبيرة وعملوا على حمايته وتطويره، حتى صاروا وسطاء التجارة الدولية.

ومما ساعد على ازدهار التجارة، النشاط الصناعي والتجاري الذي شهدته مصر وبلاد الشام خلال هذه الفترة، حيث استطاعت بلاد الشام أن تعتمد على نفسها بتصنيع كثير من السلع التجارية، بفضل ما حوته من المواد الخام اللازمة لكثير من الصناعات، ففي سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) عثر على البارود بالقرب من الكرك، وكان البارود يستخدم في سلاح المدافع[٥]، كما اكتشف معدن النحاس الأصفر في واد بالقرب من العقبة (وادي عربة) بفضل المهندس خايربيك المعمار سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، الذي توجه إلى عقبة أيلة لعمارة الأبراج[٦].

---

(١) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٩٥.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٤، وج٥، ص١٠٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٣.

- المحتسب: وظيفة رفيعة الشأن، موضوعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يشرف صاحبها على التجارة الداخلية، والأسواق والمكاييل والأوزان، ويراقب سلامة المرافق العامة، ويمنع الغلاء والاحتكار، ويشرف على الصنائع المختلفة، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص٣٩.

(٤) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٦٣.

(٥) ابن إياس، ج٤، بدائع الزهور، ص٢٠٤.

(٦) ابن إياس، ج٤، بدائع الزهور، ص١٤٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولـــم يقتصـــر الأمر على ذلك بل أن كثيراً من الأشجار الشامية نقلت بطينها إلى مصر، ومـــثل هـــذا حدث في عهد السلطان الغوري سنة (٩٠٦هـــ/ ١٥٠٠م) حيث وصلت الصناديق الخشـــبية،" وفـــيها أشجار بطينها ما بين تفاح شامي وكمثرى وسفرجل وقراصية وكروم عنب وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض وسبوسان وزنبق وغير ذلك من الأزهار الشامية[١].

وقد اعتمدت البلدان المصرية والشامية على بعضها البعض، ونشطت التجارة فيما بينها، فقد أرسل القمح من مصر إلى الشام سنة (٩١٩هـــ/ ١٥١٣م)، لارتفاع أسعار الغلال بالشام[٢].

وقـــد كان للتجار وضعهم الاجتماعي المتميز، ساعد على ذلك تمتعهم بأوضاع اقتصادية عالية، لذا نالوا رضا السلاطين والأمراء، فقربوهم إليهم ومنحوهم الامتيازات الخاصة، منها أن ولـــي بعضـــهم بعـــض الوظائف في الدولة، فقد عين السلطان الغوري – الأمير نوروز تاجر المماليك أميراً للحاج في سنة (٩١٦هـــ/ ١٥١٠م)[٣].

كذلـــك عملـــت السلطنة المملوكية على توفير الخدمات الضرورية للتجار وقوافلهم أثناء ســـفرهم، وقـــد تنوعـــت اهتمامات الغوري لتوفير ذلك وقد ظهر هذا من خلال اهتمامه ببناء الدكاكيـــن والحواصـــل، ففي سنة (٩١٥هـــ/ ١٥٠٩م) أنشأ الغوري في العقبة خاناً وفيه عدة حواصـــل[٤]، وكذلـــك قام بالمثل في السويس حيث بنى فيها خاناً ودكاكين ودوراً، وحفر آباراً، خدمة للتجار والمسافرين لحجاج بيت الله الحرام وكان هذا سنة (٩٢٠هـــ/ ١٥١٤م)[٥].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥١.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٦٦.

– الخـــان: جمعها خانات وهي أماكن مخصصة لمبيت التجار وقوافلهم، انظر: فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٩٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وبالرغم من هذا التميز الذي حظي به التجار داخل دولة المماليك، إلا أن ظلماً كبيراً لحق بهم، ففي سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) وحتى يستكمل الغوري نفقة الجند، رمى على التجار شاشات وثياب، وعلى السوقة زيتاً وعسلاً وأصناف أخرى من البضائع، خسر فيها التجار عند بيعها الثلث، فأغلقت الأسواق بسبب ذلك[١].

وقد تكرر هذا أيضاً سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) وفي هذا يقول ابن إياس:" أخرج من حواصل الذخيرة أشياء كثيرة من الأمتعة التي كانت بالحواصل من ترك الخوندات والستات اللواتي ماتوا واحتوى السلطان على موجودهم، ما بين قماش وعنبر وأواني بلور ... وأخرج أشياء كثيرة من شاشات وأرز وأثواب بعلبكي ... فقوم ذلك نحو خمسين ألف دينار، فطلب التجار ورمى عليهم تلك الأصناف بأغلى الأثمان فأطلق في التجار النار ... وشدو على التجار في جبي الأموال فجبيت في مدة يسيرة لأجل النفقة، وحصل على التجار الضرر الشامل"[٢].

كذلك كان على التجار دفع ضريبة عرفت باسم المشاهرة والمجامعة، وهي ضريبة تجمع من السوقة وتدفع للمحتسب كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية، وقد بلغت هذه الضريبة ما يزيد على ألفي دينار[٣].

وأخذت هذه الأموال من بعض التجار والحرفيين كل جمعة (مجامعة) ويبدوا أن التجار لجأوا إلى تعويض قيمة هذه الضريبة برفع أسعار البضائع[٤]، فاشتد الغلاء على الناس، وقل

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٤٢- ٤٤٣.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٨.

- المشاهرة والمجامعة: إحدى الضرائب التي فرضت على الباعة، ويدفعونها كل جمعة فتسمى مجامعة وكل شهر فتسمى مشاهرة، مما أدى إلى رفع الأسعار على الرعية من قبلهم، انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٣٩.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٩؛ خليل، التجارة الداخلية، ص١٨٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجـــود كثـــير مـــن البضـــائع فـــي السوق، حتى اضطر السلطان إلى إلغائها سنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦)[١].

أمـــا بالنســـبة لفئة الحرفيين من الصناع، والنجارين، والحدادين وغيرهم فهؤلاء كان لهم دور واضح لا يمكن إغفاله في دولة المماليك الثانية، ففي سنة (٩٢٠هـــ/ ١٥١٤م) قام جماعة من النجارين والحدادين بعمارة عدد من المراكب في السويس، فما كان من السلطان الغوري إلا أن أكرمهم وأخلع على كل واحد منهم خلعة[٢].

أضـــف إلـــى ذلك أن هؤلاء الحرفيين كانوا يطحنون ويعدون البارود وصناعة الأسلحة اللازمـــة لذلك وكان يحدث ذلك في الزدخاناه أو بيت السلاح. ومع هذا فهذه الفئة لم تكن بعيدة عـــن ظلـــم المماليك، فقد فرضت الدولة عليهم أيضاً ضريبة المشاهرة والمجامعة، كما فرضت على ما يمتلكون من بيوت وغيطان وحوانيت أجرة عشرة أشهر كاملة تدفع مقدماً لهم[٣].

أمـــا الفلاحـــون فقـــد كانوا يشكلون السواد الأعظم من سكان الريف المصري والشامي، وانتشروا في السهول والجبال والأودية.

إلا أن هـــذه الفئة لم تكن أحسن حالاً من الفئات الاجتماعية الأخرى من التجار وأصحاب الحـــرف، بـــل عاشت نفس الظروف وتعرضت إلى مظالم المماليك، فالفلاحون كثيراً ما كانوا يتعرضـــون لظلم الموظفين الذين كانوا يستغلون مناصبهم فيفرضون عليهم الأموال، حتى أنهم كانوا يتعرضون للضرب والإهانة في حالة عدم دفع هذه الأموال[٤].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٦٦.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ومن المظالم الأخرى التي وقعت على كاهل الفلاحين أنه في سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م)[١] وسنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)[٢] قام نائب دمشق بنهب قرى حوران مما أدى إلى انقطاع وصول القمح إلى مدينة دمشق[٣].

ولم تقف معاناة الفلاحين عند ظلم المماليك لهم، فقد كانوا يعانون من تعديات العربان والقبائل البدوية، ففي سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) هاجم البدو القرى واحرقوا بيادر الغلال وأتلفوا المزروعات، وذلك بسبب مقتل أميرهم على يد نائب دمشق سيباي[٤]، وكانوا يساهموا في تكاليف التجاريد التي كانت ترسل لقتال العربان مثلاً، وفي هذا يذكر ابن إياس سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م):" وأفرد الأموال الجزيلة على جهات البلاد الشامية والحلبية بسبب المشاة الذين يكونوا أمام العسكر، فجار على الناس وأخذ جملة من الأغنام لأهل الضياع من الفلاحين نحو ثلاثين ألف رأس غنم"[٥].

كذلك ساهمت الأوبئة والآفات في ازدياد أوضاع الفلاحين سوءاً ففي سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) ظهر وباء الماشية أدى إلى موت الأبقار وفي هذا يقول ابن إياس:" جاءت الأخبار من البلاد الحلبية والشامية بأن الموت قد كثر في الأبقار فمات منها مالا يحصى، وقد وقع مثل ذلك بالديار المصرية أيام الخلفاء الفاطميين"[٦].

---

(١) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٧٠.

(٢) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٩٦.

(٣) ابن طولون، أعلام الورى، ص١٩٣.

(٤) ابن طولون، أعلام الورى، ص٢١٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٥١.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

علاقات المماليك مع الجزيرة العربية والقوى الإسلامية المحيطة بالدولة في عهد قانصوه الغوري

- العلاقة مع الحجاز واليمن
- العلاقات مع كل من :

١. الإمارات التركمانية

٢. الدولة العثمانية

٣. الهند

٤. الصفويين في فارس

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **علاقات المماليك مع الجزيرة العربية والقوى الإسلامية المحيطة :**

أ. مع الحجاز

ظلت بلاد الحجاز مرتبطة بالسلطنة المملوكية طيلة عصر دولة المماليك، ويلاحظ أحياناً إن هناك خصوصية في العلاقة سببها وجود الأماكن المقدسة في بلاد الحجاز. وظهرت تبعية بلاد الحجاز للسلطنة من خلال عدة أمور منها: تعيين الأمراء في المناطق الحجازية المختلفة، وإرسال الجند مع ركب الحاج المصري في كل عام، والمحافظة على أمن هذا الركب في بلاد الحجاز.

وفي عهد السلطان الغوري حظي أمراء مكة بعناية خاصة من قبله، ففي سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) بعث السلطان الغوري للشريف هزاع بن محمد خلعة ومرسوماً بإمرة مكة مع أميري المحمل دولات باي بن قرموط وسودون العجمي[١] ،كما أنعم الغوري على هجار بن دراج بإمرة ينبع وبالكسوة والنفقة له ولجماعته بعد أن عزل عنها يحيى بن سبع[٢].

أما فيما يتعلق بقافلة الحج المصري، فقد حظيت باهتمام خاص من قبل السلطان الغوري، الذي حرص على سلامتها، ويدلل على ذلك إرسال الغوري تجريدتين عسكريتين سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م): الأولى إلى مكة بسبب فتنة الأمير يحيى بن سبع، والثانية إلى جدة بسبب

---

(١) الجزيري، عبد القادر محمد بن عبد القادر(ت ٩٧٢هـ/١٥٦٤م)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، منشورات دار اليمامة، الرياض،(د.ت)، ج٢، ص ٧٨٠؛ عبد الغني، تاريخ أمراء مكة،ص٦٩٢.

- هزاع بن محمد: هو هزاع بن محمد بن بركات بن عجلان بن رميثة، كان على خلاف شديد مع أخيه بركات إلا أنه تمكن من هزيمته سنة (٩٠٧هـ/١٥٠١م) ، أنظر: دحلان أمراء البلد الحرام، ص٤٧؛ السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص٣٠٩.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٩؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج٢، ص٧٨٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فتـنة عـربان بنـي إبراهـيم وتعبث الفرنج في البحر الأحمر[١]، وقد استطاعت هذه التجاريد العسكرية من إخضاع عربان بني إبراهيم وهزيمة يحيى بن سبع[٢].

وكما كانت مصر هي صاحبة الشأن في تعيين أمير مكة وأمير ينبع وغيرهما من أمراء الحجاز، فقد كانت ترسل إلى الحجاز في كل عام "كسوة الكعبة الشريفة وصرر الحرمين (مبلغ مـن المال) والزيت من البحر المالح (البحر الأحمر) في مراكب من الطور"، وعندما تصل هذه المراكب إلى ميناء الطور تكمل مسيرها إلى ميناء جدة[٣].

ومن مظاهر اهتمام الغوري ببلاد الحجاز، أنه أنشأ بمكة وغيرها من الأماكن الحجازية، المرافق العامة النافعة، كالأسوار والأبراج والآبار والبيمارستانات وفي سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) أنشـأ الغـوري سوراً منيعاً حول مدينة جدة لحمايتها من تعديات عربان بني ابراهيم، وفي هذا يقـول ابن فرج: " وتمت عمارة السور في تسعة من الشهور بأبراجه ودار النيابة ومصلى العيد وذلك في عام أحد عشر وتسعمائة"[٤].

وفي سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) أصلح الغوري في طريق مكة مناهل كثيرة[٥]، وفي نفس السـنة رسـم السلطان الغوري لخاير بيك المعمار "بأن يتوجه إلى مكة من البحر المالح ويأخذ

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٢.

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور،ج٤، ص١١٦.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤ ، ص٨٩، ١٤٥، ٢٨٧؛ الراقد، الغزو العثماني، ص٥٣؛ مورتيل، ريتشارد، الأحـوال السياسـية والاقتصـادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، ١٩٨٥م، ص١٩١؛ ششه، جدة، ص٤٨.

– ميناء الطور: يقع جنوبي غربي شبه جزيرة سيناء كانت تأتيه السلع من عدن وجدة، ثم أصبح مركزاً جمركياً للسلع الآتية من الهند ، أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج٨، ص١٥٢.

(٤) ابن فرج، السلاح والعدة، ص٢٩؛ ششة، جدة، ص ٤٩.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤،ص١٥٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

صـــحبته جماعة من البنائين والنجارين والمهندسين، وقد أمر السلطان ببناء مارستان ورباط في مكة وأن يبلط الحرم ويجري عين ماء بازان إلى مكة"[1].

أضـــف إلـــى ذلك أن هناك علاقة بين السلطنة المملوكة والحجاز فيما يتعلق بالهواجس والخـــون مـــن البرتغاليين، ففي جمادى الأخرة سنة (٩١٦هـــ/ ١٥١٠م)، وصلت الأخبار إلى الســـلطان الغـــوري أن الشـــريف بـــركات أمير مكة قبض على ثلاثة أشخاص تسللوا إلى مكة وتظاهـــروا بأنهم مسلمون، وكانوا يرتدون زي الأتراك، فألقى القبض عليهم – ووجدوهم بغير ختان- اتهموا بأنهم جواسيس وأرسلوا إلى مصر عند السلطان الغوري[2].

ب. مع اليمن

كانـــت العلاقة المملوكية اليمنية علاقة جيدة، اتسمت بالتعاون، وليس أدل على ذلك مما حدث في عهد السلطان قايتباي ، فبعد زوال دولة بني رسول في اليمن وسيطرة بنو طاهر على حكـــم اليمن، حاول الطاهريون إخضاع اليمن بأكمله لسيطرتهم. وكان هذا الأمر يحتاج لمساندة ومســـاعدة المماليك، وخصوصاً أنهم ما زالوا في مرحلة التأسيس[3]، و قد اتضح هذا من خلال موقـــف السلطان قايتباي واستجابته لطلب السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني. فقد قام بابعاد الشريف محمد بن بركات أمير مكة عن مدينة جازان على الحدود اليمنية الحجازية، وكف يده عن الإغارة عليها[4].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤،ص ١٦٣؛ فريدبك، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م، ص١٩٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩١.

(٣) أحمـــد، محمـــد عـــبد العـــال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت)، ص٤٦١.

(٤) احمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٤٦٦-٤٦٧.

- الطاهـــريون: لـــم يرد ذكرهم في المصادر العربية إلا في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي، أي عـــندما بدأوا كوزراء وأمراء لدى الرسوليين في أواخر دولتهم، مؤسس الدولة عامر بن طاهر، أمتد حكمهم=

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واســتمرت العلاقــة الطيبة بين المماليك واليمنيين، فقد سيطرت أحداث القرن العاشر الهجــري/ السادس عشر الميلادي على طبيعة العلاقات بين الدولة الطاهرية وسلطنة المماليك. كما يلاحظ أن للموقع الجغرافي لليمن وتحكمها بالمدخل الجنوبي للبحر الأحمر، أثره في طبيعة العلاقــات المملوكية اليمنية. فقد اعتبرت السلطنة المملوكية أن حماية الأماكن المقدسة في مكة المكــرمة والمديــنة من الخطر البرتغالي مفتاحه مضيق باب المندب. ويبرز ما أشرنا إليه من خلال التعاون اليمني المملوكي أثناء توجه الحملة المملوكية التي قادها الأمير حسين الكردي سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) إلى جدة[١] بناءً على استنجاد سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب بالسلطان الغــوري. وقد أثمر هذا التعاون عن تقديم الأمير مرجان حاكم ميناء عدن الإمدادات للأسطول المملوكــي مــع ملاحظة أن العسكر المصري المملوكي لم يسئ التصرف في بلاد اليمن، مما ترتب على ذلك تقديم اليمنيين الماء والحطب والمؤن للحملة[٢] .

=مــن ســنة (٨٥٨- ٩٤٥هـ/١٤٥٤ -١٥٣٨م)؛ أنظر أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٢٤٧، مصطفى، شاكر، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلام للملايين، بيروت، ١٩٩٣م، ج٢، ص١٢١٦.

(١) المليــباري، تحفــة المجاهدين، ص١٦٧؛ ماهر، سعاد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، (د.م)، (د.ت)، ص١٣٠؛ أباظة، فاروق عثمان، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.م)، ١٩٨٧م، ص٤٣.

(٢) اليمنــي، عيســى بن لطف الله بن المطهر بن الأمام (ت١٠٨٤هـ /١٦٣٨م)، روح الروح فيما حدث بعد التاســعة من الفتن والفتوح، مخطوط ميكرو فيلم، مركز الوثائق والمخطوطات مكتبة الجامعة الأردنية، رقم (١٠١) وهو صورة عن مخطوط محفوظ في جامعة برنستون، تحت رقم (٦١٨)، ورقة ٨أ-٨ب؛ بامخرمة ، أبــو محمــد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م)، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، وقد نشرها محمد عبد العال أحمد ، تحت عنوان البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت)، ص١٠٨-١٠٩؛ العبدلي، أحمد بن فضل الله بن علي، هدية الزمن فــي أخــبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠، ص٩١؛ أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٥١٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

واستمر هذا التعاون الى سنة(٩١٥هـ/١٥٠٩م)، حيث اضطرت البحرية المملوكية للتراجع الى ميناء جدة إثر هزيمتها في معركة ديو(٩١٥هـ/١٥٠٩م)[١]. ومعركة ديو معركة بحرية على سواحل الهند، انتهت بهزيمة الأسطول المملوكي على يد البرتغاليين، الذين ثأروا لهزيمة سابقة لحقت بهم على يد الأمير المملوكي حسين الكردي[٢]. فبعد هذا التاريخ اقتصرت العمليات العسكرية للبحرية المملوكية في محاولة منع القوى البحرية البرتغالية من اجتياز جزيرة كمران شمالاً.

وفيما يتعلق بالموقف المحلي اليمني من القوتين المتصارعتين فيطرح تساؤل مع أي القوتين تقف اليمن؟؟

وهذا ما تشير إليه أحداث سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م)، فقد احتل البرتغاليون جزيرة كمران لمدة أربعة أشهر متتالية، وتردد اليمنيون في مقاومة الغزاة وبالتالي طلب اليمنيون من السلطان عامر"الإذن في قتالهم فلم يساعد على ذلك"[٣]. وهنا يطرح التساؤل التالي: هل يحق للرعية مقاومة الغزاة دون إذن السلطان؟؟ ويؤكد ذلك قول بامخرمة:" والناس تأكل بعضها بعضاً من الغيض"[٤].

---

(١) النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد(ت٩١٧هـ/٩٩٠م)، البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات دار اليمامة، الرياض (د.ت)، ص٢٠؛ يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت١١٠٠هـ/١٦٨٩م)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢٠، ص٦٣٦؛ أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥٠.

(٢) اللحام، ماجد، معجم المعارك الحربية، دار الفكر المعاصر، بيروت،١٩٩٠م، ص ١٥٤؛ الحداد، علوي بن طاهر، المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى ، ترتيب وتحقيق محمد ضياء شهاب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٥م، ص٣٤٢.

(٣) بامخرمة، قلادة النحر،ص١٢٢.

- كمران : جزيرة بالبحر الأحمر قبالة زبيد باليمن، انظر: يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ج٢، ص٦٣٥.

(٤) بامخرمة، قلادة النحر، ص١٢٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمـــا فيما يتعلق بموقف المماليك من احتلال البرتغاليين لجزيرة كمران، فقد قام المماليك بإعداد حملة عسكرية ثانية برئاسة سلمان العثماني، الذي أبحر لنجدة القوات المملوكية المرابطة فـــي ميناء جدة، وقد بدأ القائدان (حسين الكردي وسلمان العثماني) بعمليات عسكرية مشتركة و أبحـــرا في أواخر سنة (٩٢٠هـــ/١٥١٤م)[١]. واستطاعا تحرير جزيرة كمران من البرتغاليين ســـنة (٩٢١هـــ/ ١٥١٥م)[٢]. وبالتالي أمنًا حماية الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهنا يظهر صراع في الموقف الداخلي لليمن وينقسم اليمنيون الى قسمين: الأول تبنى فكـــرة الـــتعاون مع القوات المملوكية، وهم أهل جازان واللحُية وقبيلة الزيدية اليمنية وهم أهل تُهامة السَّنة وقد قدم هؤلاء الزاد والحنطة والزيت مساعدة للمماليك[٣].

أما القسم الثاني فقد رفض فكرة التعاون مع القوات المملوكية، وتقديم المؤن والعتاد لهم لـــئلا "يصير عادة تطالب بها كل عام"[٤]. وقد جاء ذلك في رسالة السلطان عامر الى ولده عبد الوهـــاب قبيل دخول المماليك إلى زبيد. إذ أرسل السلطان عامر بن عبد الوهاب إلى ولده عبد الوهاب يأمره"بتحيير الطعام، وإلا يشحن في البحر إلى جهة الحجاز وأن لا يخرج من زبيد"[٥]. ونتيجة لهذا الموقف اليمني وقعت معركة الرحب سنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦م) بين القوات المملوكية

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤،ص٣٨٣؛ بامخرمة، قلادة النحر ص١٢٩.

(٢) بامخرمة، قلادة النحر،ص١٣٣؛ النهروالي، البرق اليماني،ص٢٠.

(٣) بامخـــرمة، قلادة النحر،ص١٣٨-١٤٠؛ النهروالي، والبرق اليماني، ص٢٠- ٢١ العمري، حسين بن عبد الله، الأمراء والعبيد المماليك في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت،(د.ت)، ص٤٩- ٥٠.

- اللحُية : قرية ساحلية مشهورة إلى الشمال من كمران، انظر بامخرمة، قلادة النحر، ص١٣٨.

- مديـــنة الزبدية : نسبة الى قبيلة الزبدية اليمنية السنية المذهب وتقع المدينة في تهامة، انظر: بامخرمة، قلادة النحر، ص١٤٠.

(٤) النهروالي، البرق اليماني، ص٢٠؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ج٢،ص٦٤٢.

(٥) بامخرمة، قلادة النحر ، ص١٣٣؛ اليمني، روح الروح ، ورقة١١ب؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ج٢، ص٦٤٢؛ أباظة، عدن، ص٤٤؛ شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبد التاريخ، (د.م)، ١٩٦٤م، ص٢٣٧.

- زَبيد: مدينة مشهورة باليمن، أحدثت أيام المأمون، وبازائها ساحل غلافقة وساحل المندب، أنظر: الحموي، معجم البلدان مج٣، ص١٣١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والقــوات الطاهرية نتج عنها مقتل حاكم زبيد عبد الوهاب بن عامر ونهب المدينة"وسفك الدماء وانــتهاك المحــارم"[1]. ثم أن الأسطول المملوكي تابع عملياته العسكرية جنوباً حتى وصل إلى ميــناء عــدن فــي ١٣ رجب سنة (٩٢٢هـ/١٥١٧م). ثم قامت القوات المملوكية بالعودة إلى قاعدتها في ميناء جدة بعد أن أمنت حماية الأماكن المقدسة في الحجاز.

العلاقات مع كل من :

١. الإمارات التركمانية .

التركمان هم إحدى قبائل الغز التركية، التي اختلطت بشعوب المناطق التي نزحوا إليها (وسط لآسيا- منطقة التركستان) وحتى استقروا في المنطقة الواقعة جنوب روسيا الحالية، وفي نواحي بحر قزوين، والمنطقة القوقازية حتى البحر الأسود[2]. وأثناء هجرتهم أقاموا في سواحل الشــام ومــنطقة حلــب[3]. وكــانوا يعــتمدون في معيشتهم على تربية الماشية، وغذاؤهم من منتجاتها[4]. وقد امتاز التركمان بشجاعتهم، وقدرتهم على الرمي بالقسي والنشاب والسيوف[5]. وقــد استعان بهم السلاطين المماليك في حروبهم ضد الصليبين زمن الظاهر بيبرس سنة(٦٦٦ هـ/١٢٢٧م)[6]. حتى أصبحوا فيما بعد أحد عناصر الجيش المملوكي.

---

(١) اليمني، روح الروح، ورقة ١٣أ؛ بامخرمة، قلادة النحر، ص١٦٠.

(٢) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٥٠،ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٦٥-٢٦٦.

(٣) السيد، تاريخ عرب الشام، ص٦٢- ٦٣.

(٤) مصطفى، شاكر ، "دولة الترك في بلاد الشام"، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ٢٠- ٢٥ نيسان، الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٣١٨.

(٥) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانين، ص٤٦.

- الــتركمان: عــرفوا بأســماء مخــتلفة مــنها: سلاجقة، غز، ترك، تركمان، وقد دخلوا بلاد الشام في البداية كجماعــات بقصد الإغارة للسلب والنهب، انظر أسامة بن منقذ، الأمير المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بــن مرشــد بن منقذ الشيرزي الكناني، (٤٨٨- ٥٨٤هـ/١٠٩٥- ١١٨٨م)، كتاب الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والأعلام، الرياض، ١٩٧٨م، ص٥٤، ٦٩، ١٢٦.

(٦) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٧،ص١٦٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أسس التركمان إمارات عرفت بالإمارات التركمانية، وتعود أهمية هذه الإمارات التركمانية المسلمة إلى البعد الجغرافي في موقعها، إذ تسيطر هذه الإمارات على الطرق التجارية المارة بها من أواسط آسيا إلى آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط. لذا شكلت هذه الإمارات أهمية خاصة للمماليك والعثمانيين على السواء وسعى كل منهما إلى أحكام السيطرة والنفوذ على هذه الإمارات ومن أهم تلك الإمارات التركمانية :

أ. إمارة ذو القادر :

نشأت في البستان ومرعش سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، مؤسس هذه الإمارة زين الدين قراجة بك (ت ٧٥٤هـ/١٣٥٣م)[١]، وقد ترددت في ولائها للمماليك، ففي عهد أمير هذه الإمارة علاء الدولة الذي أعتلى العرش فيها سنة (٨٨٤هـ/١٤٧٩م)، ودخلت هذه الإمارة في حرب مع المماليك سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، وقد أمده السلطان بايزيد الثاني بالمعدات والجنود[٢]، انتقاماً من المماليك لقيام السلطان قايتباي بإيواء الأمير جم أخو السلطان بايزيد، بعد أن نشب نزاع بينهما على العرش[٣].

إلا أن هذه السلبية في علاقة هذه الإمارة مع المماليك، لم تدم طويلاً، فقد قامت هذه الإمارة بدور عسكري وسياسي، زمن السلطان الغوري، فقد رفض علي دولات (علاء الدولة) وبتحريض من السلطان الغوري، تقديم المؤن والمعدات اللازمة للجيش العثماني[٤]. كما منعهم من المرور في ارض إمارته أثناء العمليات العسكرية للجيش العثماني في مواجهة القوات

---

(١) متولي، أحمد فؤاد، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٦٤.

(٢) متولي، الفتح العثماني، ص ٦٥.

(٣) فريدبك، الدولة العلية، ص١٨٠.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤،ص٤٣٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصفوية وذلك قبيل معركة جالديران سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م). مما دفع العثمانيين إلى محاولة إثبات أحقيتهم في الإمارة عن طريق دعم علي بك ابن شاه سوار وإيصاله إلى حكم الإمارة[١]. وتعزز الولاء السياسي بين حكام الإمارة والسلطان الغوري، فتشير المصادر إلى أن علي بك بن شاه سوار قد أرسل هدية ورسالة إلى السلطان الغوري، قبيل معركة مرج دابق (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م). إلا أن السلطان الغوري تردد في قبول الهدية[٢]، مع ملاحظة أن التقارب العسكري استمر مع (آل علي دولات). إذ أرسل الغوري إليه ثمانية آلاف دينار كمعونة من أجل تجهيز العسكر من القبائل التركمانية، وقال لهم في رسالة بعثها :" اعملوا بهذه النفقه يرقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة فاجمعوا عساكركم من التركمان إلى أن أحضر أنا والعسكر"[٣].

ب. إمارة الآق قوينلو (الشاه البيضاء) :

نشأت هذه الإمارة في جنوب شرق الأناضول، في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، واستقرت في ديار بكر، مؤسس هذه الإمارة (قره بولاق عثمان)[٤] .

كانت هذه الإمارة على خلاف ديني مع إمارة القراقوينلو (الشاه السوداء)، فإمارة الآق قوينلو سنية المذهب، أما الثانية فهي شيعية المذهب، مما أدى إلى حدوث نزاع واصطدام بينهما

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٩٥- ٣٩٨؛ طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٤٩٦- ٤٩٧.

- معركة جالديران: معركة نشبت بين العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول والصفويين بقيادة اسماعيل الصفوي شمال إيران، وانتهت بانتصار العثمانيين ودخول سليم الأول تبريز عاصمة الصفويين، أنظر: اللحام، معجم المعارك الحربية، ص١٠٣؛ عرايبة، عبد الكريم، العرب والأتراك، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٦١م، ص٢٠٩.

(٢) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٣٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥ ، ص١٣- ١٤.

(٤) متولي، الفتح العثماني، ص٦٨.

- الآق قوينلو: ويعني أسمها دولة الخروف الأبيض، حكمت مناطق ديار بكر وشرق الأناضول واذربيجان للفترة (٧٨٠هـ/١٣٣٨م-٩١٤هـ/١٥٨٠م)، أنظر: الجميل، سياركوكب، تكوين العرب الحديث، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩١م، ص٥٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقد ظل هذا التوتر سائداً بين الإمارتين التركمانيتين إلى أن تولى حكم الآق قوينلو أوزون حسن (حسن الطويل) سنة(٨٧١هـ/١٤٦٦م-٨٨٢هـ/١٤٧٨م)[١]. أما العلاقة بين الطويل والمماليك فقد اقتصرت على خلاف حول قافلة الحج، فقد رأى الطويل أحقيته بإرسال قافلة الحج إلى مكة، والدعوة له وحمل لواء دعوته. بنما رأى المماليك أنهم وحدهم أصحاب الحق في ذلك وأصحاب السيادة في الحجاز[٢].

لكن هذه العلاقة تحسنت بين الإمارة والمماليك فيما بعد، وارتبطت بعلاقات ودية مع المماليك، ومن مظاهر ذلك استقبال السلطان الغوري لإبنة خليل بن حسن الطويل – (زليخة خاتون) – حاكم الإمارة أثناء توجهها إلى الحج سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م)[٣].

ج. إمارة القراقوينلو (الشاة السوداء) :

نشأت جنوب شرق الأناضول في منتصف القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي شمال بحيرة وان، مؤسس هذه الإمارة (قرة محمد)[٤]، الذي دخل في نزاع طويل مع إمارة الآق قوينلو، وانتهت هذه المناوشات بإنضمام إمارة القراقوينلو إلى الآق قوينلو[٥].

د. امارة بني رمضان :

من الإمارات التركمانية التابعة للمماليك نشأت في الأناضول، وكانت هذه الإمارة تدين بالولاء الشديد للمماليك[٦]، وتشير المصادر المملوكية إلى عدد من أمراء التركمان الذين أرسلوا

---

(١) متولي، الفتح العثماني، ص٦٩.

– القراقوينلو: ويعني أسمها دولة الخروف الأسود، حكمت منطقة أذربيجان العراق للفترة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م-٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، أنظر الجميل، تكوين العرب الحديث، ص ٧٥.

(٢) غرايبة، العرب والأتراك، ص٢٠٣- ٢٠٤.

(٣) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٤٠- ١٤١.

(٤) متولي، الفتح العثماني، ص٦٨.

(٥) غرايبة، العرب والأتراك، ص٢٠٠.

(٦) متولي، الفتح العثماني، ص٧٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

سفارات إلى السلطان الغوري سنة (٩١٨هـ/١٥٠٧م) وكان من بينهم قاصد ابن رمضان[١].

٢. الدولة العثمانية.

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة صغيرة من قبائل الغز التركمانية هي قبيلة (قايي)، وكان موطن هذه العشيرة هو منطقة (أسكي شهر) الواقعة شمال غرب أفروجيا على الحدود التركية البيزنطية.

وكان ارطغرل ثم ابنه عثمان من بعده على رأس هذه العشيرة[٢]. إلا أن هذه العشيرة تسمت باسم عثمان وليس باسم والده ، كما كان متعارف عليه في نظم العشائر التركمانية، بسبب قوة عثمان التي كانت في اطراد مستمر داخل عشيرته، واتساع شهرته بسبب أعمال الجهاد والغزو التي تزعمتها ضد البيزنطيين[٣]. وقد أتبع عثمان بك الذي كان يسيطر على المنطقة الممتدة من أسكي شهر حتى حدود بورصه وازنيق سياسة جديدة تهدف إلى كسب الولاة

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٨- ٢٦٩.

(٢) كوبريلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢ ، ١٩٩٣م، ص١٢٢؛ أوغلي، أكمل الدين احسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله الى العربية صالح سعكاوي، استنبول، ١٩٩٩م، ص٨؛ كوثراني، وجيه،الفقيه والسلطان، منشورات دار الرشيد، بيروت، ١٩٨٩م، ص٤٣- ٤٤.

Goydschmidt, Artgur, Aconcise History of the middle East, Flokeskon, England (n,d), page 124.

(٣) أوغلي، الدولة العثمانية،ص٨.

- أسكي شهر: مدينة على نهر بورصوق جاي، وهي عاصمة قضاء بنفس الاسم في سنجق كوتاهية من أعمال بروسه وقد قامت اسكي شهر مكان مدينة دوريلايوت البيزنطية التي عرفها العرب باسم درواية أنظر: خورشيد، إبراهيم زكي، دائرة المعارف الإسلامية، الشعب، القاهرة، (د. ت)، مج٣، ص٣٣٩.

- بورصة: مدينة تركية مركز لولاية بورصة، تبعد من استنبول الى الجنوب الشرقي، دخلت تحت الحكم - العثماني سنة (٧٢٧ هـ/١٣٢٦م). وأصبحت عاصمتها من عام (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) وبقيت من الناحية النظرية حتى فتح استنبول، وقد ظلت مدة طويلة مركزاً لصناعة الحرير، سكانها خليط من المسلمين والنصارى واليهود، عدد سكانها حوالي مليون نسمة، انظر: اوزتونا، يلمازا، تاريخ الدولة العثمانية، استنبول، ١٩٩٠م، ج٢ ص٦٤٢- ٦٥١.

- ازنيق: مدينة على ساحل بحر القسطنطينية، أنظر: الحموي، معجم البلدان، مج١، ص١٦٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البيزنطيين، بدلاً من الخوض في معارك حتى يتمكن من تقوية إمارته. وبالفعل استطاع عثمان بك التغلب على منطقة ازنيق وتهديدها والانتصار على القوات البيزنطية سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، مما أكسبه ذلك شهرة واسعة وظهر كزعيم للإمارات التركمانية ولا سيما بعد فشل القوات البيزنطية في التغلب عليه[١]. ومن هنا بدأت فكرة التوسع والانفتاح تسيطر على عقول العثمانيين.

ولترسيخ هذا المفهوم على أرض الواقع بدأت الأمارة العثمانية بالتوسع على حساب الإمارات التركمانية المجاورة، وربط تلك الإمارات بها ومن هذه الإمارات: إمارة بني رمضان وإمارة ذو القادر في شرق الأناضول وجنوبه[٢].

وهكذا استطاع بنو عثمان فيما بعد تأسيس إمبراطورية عثمانية مترامية الأطراف، استمر حكمها طويلاً قرابة سبع قرون[٣].

كانت العلاقة بين المماليك والعثمانيين ذات أبعاد مختلفة منها: الاقتصادية، والدينية، والسياسية، والعسكرية. فالعثمانيون كانوا يقصدون البلاد الشامية لشراء التوابل والحرير وما تجلبه من سلع الشرق المختلفة[٤]. وكانوا يقصدون مكة لأداء فريضة الحج، وكان على المماليك الاهتمام بأمن وسلامة ورعاية قافلة الحج العثماني أثناء مرورها بأراضي السلطنة المملوكية[٥]. وكذلك الأمر بالنسبة للمماليك فقد اعتمدوا على العثمانيين في شراء الأخشاب والحديد والمواد الأخرى الضرورية لصناعة السفن[٦].

---

(١) أوغلي، الدولة العثمانية، ص٩.

(٢) أوغلي، الدولة العثمانية، ص٩- ١٠.

(٣) كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص٢٢.

(٤) العلبي، دمشق، ص٣٧٠.

(5) Winter, Micheal, Egyptain Society Under Ottoman Rule 1517-1798, London And NewYork, (n,d),Page(5).

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أما على الصعيد السياسي فكانت العلاقة المملوكية العثمانية غير ثابتة، فنجدها حيناً تتسم بالود، وحيناً آخر نجدها عكس ذلك، وليس أدل على ذلك ما حدث في عهد السلطان قايتباي، فقد قام هذا السلطان بإيواء الأمير "جم" أخ السلطان العثماني بايزيد الثاني[1] بعد أن نشب نزاع بينهما على العرش[2]. فعمد السلطان قايتباي بإكرام الأمير جم والترحيب به، حتى أنه جهزه للسفر لأداء فريضة الحج[4].

كل هذه الظروف السياسية أدت إلى اضطراب العلاقات بين المماليك والعثمانيين في عهد السلطان قايتباي، وسارعت إلى نشوب حروب بينهما في السنوات (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) و (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) وغيرها[5].

إلا أن هذه الحروب انتهت بعقد صلح بين السلطان قايتباي والسلطان بايزيد الثاني، وبتبادل الهدايا بين الطرفين[6]. وقد بقيت العلاقة بين المماليك والعثمانيين تتصف بالود والصداقة حتى عهد السلطان الغوري، فقد اتسمت العلاقات في الفترة الواقعة ما بين (٩٠٦- ٩٢١هـ/ ١٥٠٠- ١٥١٥م) بالتعاون بين السلطتين المسلمتين، وخاصة أن كلاً منهما كان يحارب الأوربيين في جبهة مختلفة، وقد ظهر التعاون من خلال السفارات المتبادلة، والحج ولجوء الأمراء العثمانيين إلى المماليك، والتعاون العسكري المشترك ضد البرتغاليين.

---

(١) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٦٦.

(٢) فريدبك ، الدولة العلية،ص١٨٠.

(٤) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٦٦، زقلمة، أنور، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٩٦.

(٥) عبد المنعم، صبحي، الشرق الإسلامي زمن العثمانيين، العربي للنشر، القاهرة، (د.ت)، ص١٠٢؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٧٢؛ برجاوي، سعيد أحمد، الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر والتوزيع، (د.م)، (د.ت)، ص٩٤.

(٦) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٧٣ ؛ زقلمة، المماليك، ص٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفـيما يـتعلق بالسـفارات فقد أشارت المصادر إلى سفارات متبادلة بين الطرفين في السـنوات التالـية: في سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) " حضر قاصد ابن عثمان ملك الروم وصحبته تقدمـة حافلـة للسـلطان، فأوكـب السلطان في ذلك اليوم موكباً عظيماً بالحوش"[١]. وفي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) "حضر تاني بك الخازندار وهو المحتسب أيضاً، الذي كان قد توجه قاصداً إلـى ابـن عثمان ملك الروم، فكانت مدة غيبته هذه السفرة نحواً من عشرة أشهر"[٢]. وفي سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) "جمـع السلطان الأمراء، وضربوا مشورة في أمر الصوفي (الصفوي)، فأشـار الأمراء على السلطان ، بأن يرسل إليه تجريدة فنادى للعسكر بالعرض ، فطلع العسكر قاطـبة إلى القلعة فعرضهم، وكان قاصد ابن عثمان حاضراً"[٣]. وفي سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) " حضـر يونـس العادلي وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشاباً وحديداً وبارود فلما بلغ ابن عثمان ذلك ردّ المال الذي كان مع يونس العادلي"[٤]. وهذه السفارات كانت ذات مهـام محـددة أمّـا للتهنئة بتنصيب السلطان الجديد[٥]. وإما لشرح ابعاد النشاط العسكري البرتغالي في المنطقة إلى العثمانيين[٦].

أمـا فـيما يـتعلق بـأهداف سفارات العثمانيين إلى المماليك، فمنها شرح أبعاد الخطر الصفوي(الشيعي-الأثناعشري)[٧]. وقد استقبل الطرفان السفارات بالحفاوة والتكريم، وقد وصف ابن إياس ذلك بقوله "وفيه عزم السلطان على قاصد بن عثمان في الميدان وأضافه وألبسه خلعة

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٦- ٤٧؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج١، ص٦٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٦٣.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤،ص١١٨.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور،ج٤،ص١٩٦؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١،ص٣٤٢.

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور،ج٤،ص٢٨٩؛ متولي، الفتح العثماني، ص٤٠.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤ ص١٨٤، ٢٠١.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١١٨- ١١٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

السفر"[1]. ومن السفراء المماليك الذين أمّوا البلاط العثماني الأمير المملوكي علان الدوادار وذلك سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)[2]، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني[3].

وبالنسبة للأمراء العثمانيين الذين التجأوا إلى السلطنة المملوكية وأحسنت السلطنة وفادتهم فيعد هذا مظهراً ثالثاً للتعاون المشترك فقد التجأ الأميران: قورقد بن السلطان بايزيد الثاني إلى السلطان الغوري سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)[4]، وسليمان بن أحمد ابن أخ السلطان سليم الأول سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م)، وتعود أسباب هذا اللجوء السياسي إلى خلافات داخلية في البيت العثماني على استلام العرش في استنبول بعد وفاة السلطان بايزيد الثاني[5].

أما أبرز مظاهر التعاون بين المماليك والعثمانيين فيبرز من خلال التعاون العسكري ضد البرتغاليين، وتشير المصادر المعاصرة للأحداث إلى أن السنوات(٩١٣هـ/١٥٠٧م)[6]، و (٩١٨هـ/١٥١٢م)[7]، و(٩٢٠هـ/١٥١٤م)[8]، و(٩٢١هـ/١٥١٥م)[9] شهدت هذا التعاون. ففي سنة (٩١٦هـ/ ١٥١١م) قام العثمانيون بإرسال الجنود والمعدات" فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة، ونشاب ثلاثين ألف سهم، وبارود مطيب أربعون قنطاراً، ومقاذيف

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٧.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨٤؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٤٢.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٨٩.

- أميرآخور: هو الذي يتولى الأشراف على أصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير، والثاني فارسي وهو آخور، أنظر؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦١.

(4) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج ٢، ص٢١؛ العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة القدس، ١٩٦١م، ص٢١٨.

(5) متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، ص ٥٩.

(6) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١١٩.

(7) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٥٨.

(8) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤،ص٢٨٨- ٢٨٩.

(9) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٥٨.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

خشب العدة ألفي مقذاف، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد وغير ذلـك"[1]. وفي هذا يقول ابن إياس: "وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمه للسلطان"[2]، وقد أشار ابن إيـاس إلى تأثر الغوري بوفاة السلطان بايزيد، فبكى عليه وأظهر الحزن والأسى، وصلى عليه صلاة الغيبة بالقلعة، ثم أمر السلطان الغوري أن تقام صلاة الغيبة عليه عقب صلاة الجمعة في جوامع القاهرة مثل الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون[3]. إلا أن هذه العلاقات تبدلت بعد سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م).

٣. الهـــند

علـى مـا يبدو فإن صلة مصر ببلاد الهند في عصر المماليك، تعود جذورها إلى فترة الناصـر محمد بن قلاوون، حيث كان الأمراء الهنود بحاجة إلى شرعية وجودهم على بلادهم، ولذا كانوا يطلبون من الخليفة العباسي في منشوراً يقلدهم السلطة، ومن مظاهر تبعية أمراء الهند للخلافـة العباسية نقشهم على السكة اسم الخليفة في بلادهم، كما ذكر اسم الخليفة العباسي على المـنابر[4]، وتكـرر هـذا في عهد الأشرف قايتباي وأرسل ملك الهند هداياه إلى سلطان مصر وخليفته وفي هذا يقول ابن إياس: في أحداث سنة (٨٧٦هـ/١٤٧١م) ما يلي: " قدم قاصد من عند صاحب الهند الملك غياث الدين وأحضر على يده هدية إلى السلطان، وإلى الخليفة المستنجد بـالله يوسف، وأرسل يطلب منه تقليداً بولايته على أقليم الهند، عوضاً عمن كان قبله من ملوك

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠١.

(٢) ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، ج٤، ص٢٠١؛ برجاوي، الإمبراطورية العثمانية، ص٩٥؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٢٣؛ يحيى، جلال، مصر الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت)، ص٦٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٧٠.

(٤) المليباري، تحفة المجاهدين، ص٢٥٧؛ فهمي، طرق التجارة، ص١٩؛ سيديوت، خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار، بيروت، (د.ت)، ص٢٧٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الهند فاكرمه السلطان واخلع عليه وكتب له الخليفة تقليداً بما سأل"[1]. وقد استمر هذا الأمر في عهد السلطان الغوري، إذ أرسل أليه الملك مظفر شاه الكجراتي في رمضان سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) يطلب تقليداً من الخليفة العباسي في مصر بولايته، فأجابه إلى طلبه[2].

وعندما نبحث في طبيعة العلاقات السياسية والتجارية بين دولة المماليك في مصر والشام مع دول الإسلام في الهند، فتكاد تكون العلاقات ضعيفة جداً، وذلك لأسباب عديدة منها: أحجام المصادر الإسلامية المعاصرة عن الخوض في مثل هذه المواضيع، الأمر الذي جعلنا نقف عاجزين عن بلورة أفكار واضحة عن علاقة المماليك مع الهند الإسلامية، ومع ذلك وجدنا العديد من المعلومات في بعض المصادر تشير إلى تعاون عسكري ما بين المماليك والهند ففي عام (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) أوفد الحكام المسلمون في الهند إلى السلطان الغوري رسلاً يحملون ثلاثة التماسات يشرحون فيها خطورة الموقف الحربي في المحيط الهندي بعد انتصار البرتغاليين على حسين الكردي، ويرجون الغوري أن يتدارك الموقف "بسبب تعبث الفرنج هناك وقد تزايد أمرهم وطمعوا في أخذ البلاد من حين كسروا حسين الذي أرسله السلطان باش التجريدة التي أرسلها إلى هناك"[3].

---

[1] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣،ص٦٥.

[2] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٨٧؛ المليباري، تحفة المجاهدين، ص٢٥٧.

- وبالنسبة للمماليك الذين حكموا الهند، فلا نجد أي إشارة في المصادر تشير إلى وجود علاقات واتصالات بينهم وبين دولة المماليك في مصر وبلاد الشام، علماً بأن دولة المماليك في الهند أسست سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م) على يد قطب الدين أيبك أحد قادة الدولة الغورية الأفغانية، وهو الذي فتح دلهي وأسس أول سلطنة في الهند، ثم جاء بعد قطب الدين أيبك السلطان شمس الدين التتمش (٦٠٧- ٦٣٣هـ/ ١٢١٠- ١٢٣٥م)، ثم السلطانة رضية بنت التتمش(٦٣٣- ٦٣٨هـ/١٢٣٥- ١٢٤٠م) ، ثم السلطان ناصر الدين بن التتمش (٦٣٨هـ/١٢٤٠م- ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) ثم السلطان غياث الدين بلبن(٦٤٤- ٦٨٩هـ/١٢٦٥- ١٢٩٠م)، أنظر: النمر، عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند المؤسسة الجامعية للدارسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م، ص١٤٣- ١٥٤.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨٢- ١٨٣.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

السـلطان الغوري أعد حملة وأرسل مبعوثاً إلى الهند يطلب وحدة الحكام المسلمين "وأن يكونـوا مع السلطان عونه على قتال الفرنج الذين صاروا يتعبثون بسواحل بلاد الهند وقد كثر مـنهم الفسـاد هـناك، وبلغت عدة المراكب التي يعبثون في السواحل نحوا من خمسين مركباً، والأمر إلى الله في ذلك"[1]. بالإضافة إلى تعاون مملوكي مع الدولة الإسلامية في إقليم الكجرات غرب الهند[2].

لـم يرد في المصادر والمراجع التي اهتمت بدراسة تاريخ المسلمين في الهند أو بتاريخ المسـلمين فـي مصر والشام ، ما يشير إلى وجود علاقات سياسية أو حتى تجارية مع الدولة اللوديـة الأفغانـية، بل الذي ظهر في المصادر المتوفرة لدينا،وجود علاقات بين دولة المماليك الثانية والدولة الإسلامية في الكجرات كالعلاقة التجارية المحدودة بين الطرفين، وكذلك العلاقات السياسية.

أمـا بالنسبة للعلاقات التجارية ، فقد وردت الإشارات عن التبادل التجاري بين مماليك مصر والشام والدولة الإسلامية في الهند، حيث استوردت مصر من الهند: الحنطة، والحمص، والسمسم، وجوز الهند[3] ، وخشب الساج الذي استخدم في بناء المنازل والسفن، والحديد الخام، والسـيوف المصـنعة، والذهب، والفضة[4] ، و"اجتذبت تجارة التوابل والأحجار الكريمة افواجاً

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨٥.

(2) النمر، تاريخ الإسلام، ص٢٠٧.

(3) المليباري، تحفة المجاهدين، ص٢٥٧؛ فهمي، طرق التجارة، ص١٩.

- دولة الكجرات: أسست هذه الدولة سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م).واستمرت إلى سنة (٩٦٥هـ/١٥٧٢م) ومن أبرز زعمـاء هـذه الأسـرة السلطان أحمد شاه، والسلطان محمد شاه والسلطان مظفر شاه أنظر: النمر، تاريخ الإسلام، ص ٢٠٢- ٢٠٥.

(4) عثمان، شوقي عبد القوي، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة الفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٠م ص٦٩؛ Diffie, Baileyw ,Foundations Of the Portuguese Empire 1415-1580, University of Minnesota Press, Minneapolis, Page 185

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مســتمرة من التجار المسلمين إلى سواحل الهند الغربية"[1]، والفلفل وخشب الصندل.واستوردت الهند من مصر الكتان[2]، وكانت مصر والشام الممر التجاري بين الهند وأوروبا[3].

أمــا المظهر الأهم من مظاهر التعاون بين القوى الإسلامية فهو التعاون العسكري، وقد تمــثل في طلب الدولة الإسلامية في الكجرات مساعدات حربية من دولة المماليك المسلمين في مصــر، للتصدي للعدوان البرتغالي الذي بدأ يهدد مصالح المسلمين في سواحل الهند الغربية لا ســيما الطرق والسواحل التجارية التي ترتبط بمصالح تجارية مع العالم الإسلامي وخاصة دولة المماليــك. لذا سارعت دولة المماليك في مصر إلى نجدة إخوانها المسلمين في الهند، من خلال إرسال أساطيل وحملات بحرية لمواجهة الأسطول البرتغالي.

وأولــى هذه الحملات يأتي بعد ثلاث سنوات من وصول أول سفينة برتغالية إلى مدخل الــبحر الأحمر[4]. ونتيجة لما سبق جهز السلطان الغوري حملة جديدة، في جمادى الآخرة سنة (٩١١هـــ/١٥٠٥م) اســتجابة لنداء السلطان المظفر شاه بن محمود شاه سلطان كجرات الذي طلــب من الغوري أن يزوده" بالعدد والآلات والمدافع لدفع ضرر الفرنج عن المسلمين ولم يكن أهل الهند إذ ذاك يعرفون المدافع والمكاحل والبندقيات[5]". ومما تجدر الإشارة إليه أن في هذه الحملــة قــيادات عسكرية منها: قيادة المغاربة وحدهم التي أوكلت إلى الخواجا نور الدين علي المسلاتي المغربي، وقد أوكل إلى هذه الحملة إخضاع العرب الثائرة في بلاد الحجاز، ومن ذلك محاربة الأمير يحيى بن سبع الثائر على السلطان الغوري في منطقة ينبع، وبعد ذلك اتخذت هذه

---

(1) فهمي، طرق التجارة، ص١٩.

(2) المليباري، تحفة المجاهدين، ص٢٥٧؛ فهمي،طرق التجارة، ص١٩.

(3) عثمان، تجارة المحيط الهندي، ص٢٠٥- ٢٠٦.

(4) بامخرمة، قلادة النحر، ص٩٧.

(5) النهروالي البرق اليماني، ص١٩؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٩، ١٨٢؛ الندوي، محمد اسماعيل، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ص٧٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

القــوى العسكرية من ميناء جدة قاعدة لها[1]. وأوكل إليها مهمة مراقبة تحركات البرتغاليين في البحر الأحمر، وإرسال تقارير عن ذلك إلى السلطنة في مصر[2].

ونتيجة للتحرك العسكري البرتغالي في مياه البحر الأحمر،امر السلطان الغوري تجهيز حملــة بحرية بإتجاه الهند، وسط ظروف داخلية صعبة، وقد تم تجهيز هذه الحملة بقيادة الضابط الــبحري الريس سلمان العثماني، وأبحرت في رجب سنة (٩٢١هـــ/ ١٥١٥م)، وقد استطاعت هذه القوات من السيطرة على مينائي: زبيد، وعدن اليمنيين[3].

وبذلك نستطيع أن نقف على بعض جوانب التعاون والذي انحصر في الجانب العسكري للدفــاع عن مصالح المسلمين في الهند، وهو ما يشير إلى حالة التعاضد والتحالف بين المسلمين ســواء فــي الهند أو في مصر والشام، ويدل ذلك على الروح الدينية التي سادت في تلك الفترة وحرص المسلمين على دعم إخوانهم ضد الاعتداءات الخارجية القادمة من أوروبا.

٤. الصفويين في فارس

الصفويون أسرة نشأت في أذربيجان أولاً، نسبت إلى مؤسسها الشيخ أسحق صفي الدين الأردبيلي (٦٥٠- ٧٣٥هـــ/ ١٢٥٢- ١٣٤٣م)[4]، الذي أوجد حركته بعد هزيمة العثمانيين في معــركة أنقرة عام(٨٠٥هـــ/ ١٤٠٢م)، وفي منتصف القرن الخامس عشر ميلادي، أصبحت الحــركة الصفوية حركة دينية طائفية يتزعمها الشيخ جنيد الصفوي[5]، ثم خلفه في زعامة هذه

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٥.

--الخواجــا: لفــظ فارســي، معهــناه السيد، يلقب به أكبر التجار الأعاجم من الفرس، أنظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٢٤.

(٢) المليباري، تحفة المجاهدين، ص٢٥٩.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور ج٤، ص٤٥٨؛ النهروالي، البرق اليماني، ص٢٠- ٢١.

(٤) جمعة، محمد بديع، الشاه عباس الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص٨.

(٥) كوثراني، الفقيه والسلطان ،ص٤٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحـــركة أبنه حيدر الذي نظم الحركة والتف حوله الأتباع من التركمان، فألزمهم بلبس" العمائم الحمراء" ذات أثني عشر لفة (دلالة على الأثني عشرية)[١]، وقد عرف أتباعه (بالقزلباش)[٢].

تـــرك حـــيدر ثلاثة أبناء أحدهم الشيخ إسماعيل الصفوي (الصوفي)، استطاع إسماعيل بمساعدة القـــبائل التركية التغلب على إمارة الآق قونيلوا، واتخاذ تبريز عاصمة للصفويين[٣]، وكان المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الشيعي[٤].

قامـــت العلاقات المملوكية (الصفوية/ السنية الشيعية (الأثنا عشرية) على الشك والريبة المتبادلة بين الطرفين، وذلك لأسباب دينية وأخرى عسكرية، ومحاولة السيطرة على إمارة (ذو القـــادر)، ذات الـــولاء السياسي المتقلب بين القوى الإسلامية المحيطة بها. يضاف إلى ذلك أن هناك بعداً دولياً في إذكاء الصراع العسكري مثال ذلك : الاتفاق العسكري- الموقع بين البنادقة والصـــفويين والـــذي يقضـــي بمهاجمة الصفويين للعراق (لم تكن تابعة للمماليك) براً ومهاجمة البنادقة للسلطنة المملوكية بحراً وذلك سنة (٩١٦هـــ/١٥١٠م)[٥].

وبالنســـبة لخصوصية العلاقة بين الطرفين، نلاحظ أن هناك تحركات عسكرية صفويه باتجـــاه إمارة ذو القادر، وتبع هذه التحركات تحركات دبلوماسية لتخفيف حدة التوتر العسكري بيـــن الطرفين، إذ تشير المصادر المعاصرة إلى حملات عسكرية صفوية ضد إمارة ذو القادر

---

(١) غرايبة، العرب والأتراك، ص٢٠٧.

(٢) الجميل، سيار، تكوين العرب الحديث، ص٥٨.

(٣) غرايـــبة، العرب والأتراك، ص٢٠٩؛ الجميل، تكوين العرب الحديث، ص٨٥؛ نوار، عبد العزيز سليمان، الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٧٣م،٦٨؛ جمعه، الشاه عباس، ص١٠.

(٤) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٢٠.

(٥) ابـــن إيـــاس، بدائـــع الزهور ،ج٤، ص١٩١؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان ، ج٢، ص٣٤؛ نوار، الشعوب الإسلامية، ص٧١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وتحـــرك عســـكري مملوكي لدفع العدوان عن الإمارة الحليفة[1]، وتحرك دبلوماسي لنزع فتيل الأزمـــة أولاً ففـــي ســـنة (٩١٣هـــ/ ١٥٠٧م)، أرســـلت سفارة كانت مهمتها تبليغ السلطان الغوري،بأن الشاه إسماعيل الصفوي (الصوفي) لا علم له بدخول عسكره بلاد السلطان الغوري. وتشـــير المصادر إلى أن أعضاء هذه السفارة كانوا يلبسون "على رؤوسهم طراطير حمر عليهم رونـــق"، وقد وصفهم ابن إياس بقوله: "وهم في غاية الغلاسة"[2]. كما تشير بعض المصادر إلى أن الصـــفويين كانوا يرمون من هذه السفارات أحياناً إلى تهديد المماليك، ويظهر هذا من خلال إرســـال الصفويين مبعوثاً للغوري سنة (٩١٧هـــ/ ١٥١١م) حاملاً معه رأس أوزبك خان أحد ملوك التتار في تركستان[3] وكان الصفويون قد انتصروا عليه. وفي هذا يقول إياس: "أن قاصدا قـــدم للسلطان مصحفاً شريفاً وسجادة برسم الصلاة، فقبل السلطان المصحف وأخذه، ثم احضر القاصـــد صـــندوقاً لطيفاً ففتح بين يدي السلطان، فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى أوزبك خان وهو الذي قتله الصوفي وأخذ بلاده[4].

وهـــناك إشارات تدل على أن الصفويين كانوا يتآمرون مع دول الأوروبية ضد السلطنة المملوكـــية، بدلـــيل أن الســـلطان الغوري قام بتوبيخ قناصلة الفرنج ومنهم: القنصل الذي بثغر الإسكندرية والقنصل الذي بدمشق، والقنصل الذي بطرابلس، فلما وقفوا بين يديه هددهم بالشنق، وكـــان ســـبب ذلك أن نائب البيرة قبض على دواسيس من عند إسماعيل الصوفي (الصفوي)،

---

(1) ابـــن أجا، العراك بين المماليك العثمانيين، ص٢٢٠، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤ ص١١٨- ١١٩؛ نوار الشعوب الإسلامية،ص٧٠؛ عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٨م، ص٣٧٠.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور،ج٤، ص١٢٣.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور،ج٤، ص٢٢١، الغزي، الكواكب السائرة، ج٤، ص٢٩٦.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور،ج٤، ص٢١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعلى أيديهم مكاتبات إلى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بأن يأتوا في مراكب من البحر، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم[1].

ويشـــير ابـــن إياس إلى لغة المحادثات بين الطرفين بالآتي: " ولكن كتب إلى الصوفي (الصـــفوي) فـــي جوابه عبارة ألفاظها يابسة في الكلام، وكان الصوفي أرسل إلى السلطان في كـــتابه ألفاظا فاحشة فأجابه بمثل ذلك وزيادة، وهذا أول ابتداء وقوع الوحشة بين السلطان وبين شاه إسماعيل الصوفي (الصفوي)".

أمـــا أسباب الجفاء في المراسلات التي تبادلها الصوفي (الصفوي) مع السلطان الغوري فـــتعود كما يذكرها ابن إياس :"وكان الصوفي (الصفوي) قد حصل منه في حق قاصد السلطان الأمـــير تمـــرباي الهندي لما توجه إليه غاية الفحش"[2]. بل حتى أن الصوفي (الصفوي) لم يقم بإكـــرام قاصـــد الغوري، ولم يقابله سوى مره واحدة، ولم يرد على جواب الغوري الذي أرسله معـــه[3]. ومـــا تجدر الإشارة إليه أن الصوفي (الصفوي) كان هو أول من استخدم في كتاباته للغوري هذه الألفاظ الفاحشة، فما كان من الغوري إلا أن رد عليه بالمثل[4].

وقد تبدل هذا الصراع العسكري غير المباشر إلى نوع من العلاقات الودية بين الطرفين ، وذلـــك أثـــر معـــركة جالديـــران سنة (٩٢٠هـــ/١٥١٤م)، فقد حدثت هذه المعركة في موقع جالديران شمال شرق بحيرة وان بين العثمانيين والصفويين، وانتهت هذه المعركة بهزيمة الشاه الصـــفوي وانتصار السلطان سليم، واحتلال العثمانيين لمنطقة تبريز عاصمة الصفويين ، وضم

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩١، ٢٠٥.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٧١.

(3) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٢٥.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٦.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ديـــار بكر وما حولها إلى بلادهم[1] ومن نتائج هذه المعركة أنها أثارت مخاوف المماليك، لأن العثمانيين بعد هذا النصر سيتوجهون لقتال المماليك، ويقول ابن إياس في هذا الأمر:" أنا اخرج بنفســـي وأقعـــد في حلب حتى نرى ما يكون في أمر الصوفي وابن عثمان فإن كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا"[2] وقد حرص كل منهما على عدم إقامة أي حلف عسكري مع العثمانيين ومساعدة كل مهما الآخر[3].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[1] الجميل، تكوين العرب الحديث، ص٦٤.

[2] ابن إياس، بدائع الزهور،ج٥، ص٢٢، نوار، الشعوب الإسلامية، ص٧٣.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور،ج٥، ص٣٥.

الفصل الرابع

علاقة المماليك مع القوى المسيحية في عهد قانصوه الغوري

١. العلاقة مع الحبشة

٢. العلاقة مع البندقية

٣. العلاقة مع فرنسا

٤. العلاقة مع الاسبان

٥. العلاقة مع البابوية في روما وفرسان الاسبتارية

٦. العلاقة مع البرتغاليين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علاقة المماليك مع القوى المسيحية في عهد الغوري

شـــهد عهـــد الغـــوري تغيرات كبيرة في العالم من حوله، فهناك اكتشاف العالم الجديد، وبداية الاكتشافات الجغرافية ممثلة برأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند والشرق الأقصى. واخـــتراع الآلة البخارية والتطلع إلى إيجاد أسواق تجارية لأوروبا لتسويق الفائض من إنتاجها الصـــناعي. وتنامي فكرة السيطرة والاستعمار على العالم من حولهم، وازدياد القوى العسكرية والأســـاطيل الـــبحرية والتنافس الشديد للسيطرة على الطرق التجارة الدولية والمواد الأولية في أمريكا وآسيا وأفريقيا. ومن هنا فلم تكن الدولة المملوكية بمعزل عن كل هذا الذي يدور حولها، فكانـــت لها اتصالاتها وسفاراتها مع معظم الدول المحيطة بها وقد تمثلت هذه العلاقات بعلاقات سياسية وأخرى عسكرية نذكر من ذلك علاقاتها مع كل من:

١. مع الحبشة.

تعـــود العلاقـــات بين السلطنة المملوكية والحبشة إلى فترة ما قبل تولي السلطان الغوري مقاليد حكمه[١]، ويرجح أن البعد الديني هو المسيطر على هذه العلاقات، فالكنيسة الحبشية تتبع الكنيســـة المصرية، وهذا الأمر دفع النصارى الأحباش إلى إرسال وفود إلى القاهرة يستأذنون، السلطان الغوري في السماح لهم بالتوجه إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة أو للإقامة في أديرتهم في القدس[٢].

ومـــما يؤكـــد ما ذهبنا إليه وصول سفارة حبشية إلى مصر، ترتب على ذلك أن السلطان الغوري أصدر مرسوماً سنة (٩١٩هـــ/ ١٥١٣م) علق على أحد أبواب كنيسة القيامة، يتضمن:" بـــأن لا يلزم الجماعة المزبورة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم إلى القمامة أحد أسوة

---

(١) الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م، ص٨٠.

(٢) اليعقوب، محمد أحمد سليم، ناحية القدس الشريف، منشورات البنك الأهلي، الأردن، ١٩٩٩م، ج٢،ص٤٦٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

رهـــبان الكرج والحبوش: الوارد من الرهبان والراهبانيات المذكورين في البر والبحر مستمر حكم ذلك من تقادم السنين لا يتعرض أحد إلى موتاهم ولا إلى تربهم ومسامحتهم"[١].

ويلاحظ قلة السفارات التي وصلت إلى القاهرة من الحبشة، ويعلل ذلك ابن إياس بقوله:" ومالهم شغل في مصر"[٢].

وشـــهد أواخـــر عصـــر الغـــوري وصـــول سفارة الحبشة إلى القاهرة، سنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦م)، ويـــبدو أن رئـــيس هذا الوفد بطرك كبير من أعيان أُمراء الحبشة، وكان يحمل معه رسالة إلى الغوري تضمنت " تم قدمّوا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه في ضمن غلاف من الفضة وقـــيل مـــن الذهب، فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان، وان قصـــادنا أتـــوا إلـــى مصر ليزوروا القيامة التي بالقدس فلا تمنعوهم من ذلك"[٣].وقد بلغ عدد أعضاء هذا الوفد، ستمائة إنسان[٤]. وقد مُثل هذا الوفد أمام الغوري، وكان يلبس أحسن الثياب، وقـــدم له هدية بقيمة خمسة آلاف دينار، وقد علق المؤرخ المعاصر للحدث ابن إياس على قلة هـــذه الهدية، بقوله عن:" ضعف ملوك الحبشة بالنسبة لما كانوا عليه من قديم الزمان"[٥]، ولهذا السبب فإن قيمة هذه الهدية كانت قليلة.

---

(١) ســـجل شـــرعي محكمـــة القدس، رقم (١٥)، تاريخه ١٣/ ذو الحجة، (٩٢٣هـــ/ ١٥١٧م)، ص١٤٥، وقد زودنـــي بنسخة عنه الأستاذ محمد اليعقوب قسم التاريخ، جامعة اليرموك؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، " بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة"، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد (١٤)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٢٢- ٢٣؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١٢١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج٢، ص٥.

(٤) عاشور، أضواء جديدة، ص ٢٣- ٢٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص ١٦٠- ١٦١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

٢. مع البندقية.

ارتبطت السلطنة المملوكية بعلاقات تجارية مع معظم الدويلات الإيطالية منها: بيزا، جنوا، البندقية، وكان لهذه المدن وكالات تجارية في مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى الخانات حيث تؤجر للتجار للقيام بعملية البيع والشراء، كما سمح المماليك لهذه الدويلات الإيطالية أن ترعى شؤونها السياسية والتجارية من خلال قناصل لهم في السلطنة المملوكية، ففي سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) أقيمت قنصلية للبنادقة في بيت المقدس، كذلك حصلت جنوا على حق إقامة قنصلية لها في بيت المقدس سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)[١].

ومما يجدر الإشارة إليه أن البندقية كانت أكثر المدن الإيطالية صلةً بالسلطنة المملوكية، وكانت كذلك أكبر عميل في تجارة شرق البحر المتوسط، فقد كانت لها جالية كبيرة في الإسكندرية[٢]، كما أن الإسكندرية أصبحت سوقاً تجارياً هامة للتجارة الشرقية بالإضافة إلى أسواق حلب ودمشق التي كانت تؤدي نفس الغرض في خدمة التجارة الشرقية بين الشرق والغرب[٣].

وكانت البندقية تصدّر لمصر الخشب والمواد الخام اللازمة لصناعة السفن، وتستورد التوابل والحرير والقطن والكتان والزجاج[٤]، واستمرت هذه العلاقات إلى أن ظهر البرتغاليون

---

(١) غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص٢٠.

(٢) فهمي، طرق التجارة، ص٢٠.

(٣) ديل، شارل، البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب أحمد عزت، دار المعارف بمصر، (د. ت)، ص١٤١- ١٤٢.

(٤) سعيد، البحرية، ص١٤٥ عدرة، غادة المقدم،" التجارة والتبادل التجاري بين البندقية والمماليك"، مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان (٨٥، ٨٦)، بيروت، ١٩٨٥م، ص٣٨.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

في المنطقة، وذلك بعد وصولهم إلى طريق رأس الرجاء الصالح سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، ثم وصولهم إلى الهند (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨)[١].

وقد ترتب على هذا النشاط التجاري قيام علاقات سياسية بين المماليك والبنادقة، فأرسل البنادقة ثلاثة بعثات دبلوماسية أولها برئاسة بنديتوساناتو (*Bendettosanato*) في أواخر خريف سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) لعرض تطورات الموقف في مياه المحيط الهندي على السلطان الغوري وتزويده بما لديهم من معلومات خطيرة، وتقديم النصح للسلطان الغوري بعدة اتجاهات: الأول التأكيد على مراسلة السلطان الغوري لحكام المسلمين في الإمارات الهندية ومطالبتهم بعدم التعامل مع البرتغاليين إلى أن يتم إعداد الأسطول المملوكي الهندي المشترك للقضاء على البرتغاليين[٢]. ثانياً: طالب السفير البندقي بتخفيض أسعار التوابل التي تشتريها البندقية من مصر كما طالب بتخفيض الرسوم الجمركية المفروضة على التوابل، لكي تستطيع البندقية منافسة أسواق لشبونة[٣]. ومع كل هذا فقد بقيت أسعار التوابل مرتفعة في مصر، الأمر الذي أدى إلى حدوث نزاع بين السلطان الغوري وتجار البندقية، الذين رفضوا شراء البضائع بالسعر الذي طلبه الغوري، فما كان من الغوري إلا أن سجن تجار البندقية وقنصلهم، وفرض عليهم غرامة مالية، وترتب على هذا الأمر أن خفض السلطان سعر التوابل إلى (٨٠) دوكاً بدلاً

---

(١) المليباري، تحفة المجاهدين، ص ١٥٥- ١٥٧؛ فهمي، طرق التجارة، ص٦٩.

- رأس الرجاء الصالح: كان يعرف قديماً برأس العواصف لكثرة ما به من عواصف، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه (رأس الرجاء الصالح)، لأنه فتح أمام البرتغاليين الأمل والرجاء في الوصول إلى الهند، انظر: المليباري، تحفة المجاهدين، ص١٥٢؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص٦٣٠.

(٢) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، عربه أحمد رضا، مراجعة وتقديم عز الدين فوده، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م، ص ١٥-١٦؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص٢٩٤.

(٣) بامخرمة، قلادة النحر، ص ٧٨- ٧٩؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٢٢؛ دراج، أحمد، المماليك والفرنج، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٣٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من (١٠٥) دوكات[١]. ثالثاً: كرر السفير البندقي شكواه من تعنت الولاة في دمشق وبيروت مع البـــنادقة إذ يجبرونهم على شراء كميات إضافة من التوابل، كما شكا من معاملة عمال السلطان لتجار البنادقة في الجمرك، كما أن مسؤولي الموانئ يمنعون لجوء سفن البنادقة إلى الموانئ ليلاً وخلال العواصف. كما يجبرونهم على مغادرة الميناء قبل شحن كامل بضاعتهم فيبقى قسم منها في الميناء معرضاً للضياع[٢].

وقـــد أبلغ السلطان الغوري السفير سانوتو بأن مصر لا تستطيع وحدها مواجهة الخطر البرتغالي وطلب من البندقية إمداده بالأخشاب والمعدات اللازمة، إلا أن البندقية لم تستجب لذلك نتـــيجة لتدخل البابوية، واتهامها بمساعدة الأعداء المسلمين حربياً ضد البرتغال المسيحيين، وقد جـــاء هذا الرد البندقي في سنة (٩١٠هـــ/ ١٥٠٤م)[٣]، مما ترتب على ذلك إرسال البنادقة بعثه أخـــرى سنة (٩١١هـــ/ ١٥٠٥م) لتقديم آخر المعلومات إلى الغوري عن النشاط البرتغالي في المياه الهندية[٤].

أمـــا عن موقف السلطنة المملوكية تجاه تطورات الأحداث فمن خلال استقراء المصادر اليمنية والمملوكية المعاصرة للأحداث فإن المعلومات المتوافرة عن النشاط العسكري البرتغالي قلـــيلة بل نادرة في الفترة الواقعة ما بين (٩٠٣هـــ/ ١٤٩٧م- ٩٠٨هـــ/ ١٥٠٢م) وبالتالي فقد جاءت أول إشارة إلى ذلك في المصادر اليمنية وبالذات لدى بامحزمة في قلادة النحر إذ يقول:"

---

[١] فهمي، طرق التجارة، ص ٧٠- ٧١.

- دوكـــات: مـــن ألقاب ملوك البندقية وحكام جنوا في عصر المماليك، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٠٤؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٤٠.

[٢] فهمي، طرق التجارة، ص٧٦.

[٣] بامخـــرمة، قلادة النحر، ص٨٨؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٣٤؛ فهمي، طرق التجارة، ص ٨٠- ٨١؛ إيفـــانون، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، نقله إلى العربية يونس عطا الله، راجعه وقدم له مسعود الفارابي، (د. م)، ١٩٨٨، ص٣٣.

[٤] فهمي، طرق التجارة، ص٨٣؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي هذه السنة، ظهرت مراكب الفرنج في البحر بطريق الهند"[1]. وفي حين أن أوّل إشارة لابن إياس كانت في أحداث سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م):" وفيه عرض السلطان العسكر وعين ثلاثة تجاريد: واحدة إلى مكة بسبب يحيى بن سبع أمير الينبع وواحدة إلى الكرك بسبب فساد عربان بني لام، وواحدة مكة الهند بسبب تعبث الفرنج"[2]. وبعد هذا التاريخ بدأ السلطان الغوري بالاستعدادات العسكرية البحرية لتجهيز المقاتلين، إلا أن هذه الحملة لم تكن بالمستوى المطلوب، مع ملاحظة أنها استطاعت بالتعاون مع القوى الهندية من إحراز النصر في معركة شول (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)[3]. إلا أن القوى الإسلامية منيت بهزيمة بحرية في معركة ديو (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)[4]. ونتيجة لهذا الموقف العسكري السيئ للمماليك، بدأ السلطان الغوري إجراء اتصالات مع ملوك الفرنج والبابا، طالباً عدم التعرض للمسلمين ولتجارتهم حتى لا يضطر السلطان إلى اتخاذ إجراءات انتقامية، ومنها اعتقال الرعايا الأوروبيين المقيمين في بلاده، وإغلاق كنيسة القيامة، ومنع الحجاج المسيحيين من دخول القدس[5]. ويؤكد ما ذهبنا إليه ما أورده ابن إياس في أحداث شهر رجب سنة (٩١٦هـ/ ١٥١١م) إذ يقول:" وفيه حضر إلى الأبواب الشريفة رهبان القمامة التي بالقدس وكان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتلوا محمد بيك قريب السلطان ونهبوا ما في المراكب التي جهزها السلطان صحبته، فلمّا وقفوا بين

---

(١) بامخرمة، قلادة النحر، ص٩٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٢؛ غوانمة، أيلة، ص٨٣.

(٣) المليباري، تحفة المجاهدين، ص١٦٧.

- معركة شول (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م): معركة بحرية على سواحل الهند جنوب بومباي، انهزم فيها الأسطول البرتغالي بقيادة (لورنزو دالميدا) على الأسطول المملوكي بقيادة الأمير حسين، انظر: اللحام، معجم المعارك الحربية، ص١٩٦.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٦؛ غوانمة، أيلة، ص٨٦.

(٥) أحمد، محمد عبد العال، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني "بامخرمة" سجلها في مخطوط قلادة النحر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د. م)، ص٨٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يـــدي السلطان وبخهم بالكلام على لسان تغري بردي الترجمان، وقال لهم: كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذوه من المراكب والسلاح، "وإن لم يردوا ذلك هدمت القمامة واشنق الرهبان"[١]. وتبع هذا الأمر اتخاذ السلطان إجراءات تعسفية منها اعتقال التجار البنادقة وسجنهم، ومصادرة أملاكهم في مصر وبلاد الشام بسبب اعتقاد الغوري أن البنادقة أفشوا سراً لسفن الفرسان[٢].

أمـــا الوجـــه الآخـــر للعلاقات فيظهر من خلال وقوع مراسلات متبادلة بين الصفويين والبـــنادقة بيد المماليك، مما أدى إلى تأزم العلاقات بينهما، وتحول اهتمام المماليك نحو فرنسا، ممـــا حفـــز البندقية على القيام بعرض للسفن البحرية التابعة للبندقية[٣]. وتبع هذا الأمر إرسال البندقـــية سفيراً لها إلى المماليك برئاسة تريفزاني سنة (٩١٧هـــ/ ١٥١١م)، وقد أجرى السفير محادثات مع السلطان الغوري، هدفها فتح كنيسة القيامة أمام الإفرنج، وقد ذكر ابن إياس الخبر في أحداث شهر صفر سنة (٩١٨هـــ/ ١٥١٢م) قال : "وفي يوم الاثنين ٢٣ صفر حضر قاصد ملـــك الفرنج البنادقة إلى الأبواب السلطانية وحصل له استقبال مهيب ثم طلع القاصد وصحبته تقدمه حافلة نحو ما مائة حمال ما بين أواني بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماسيح وشقف حريـــر أطلس وغير ذلك – وكان مع القاصد حوالي خمسين إنساناً–وقد قابلوا السلطان ونزلوا إلى مكان أعد لهم، وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قد جاء يسعى لفتح كنيسة القيامة بالقدس، التي كـــان الســـلطان قـــد أغلقها ومنع الفرانج من دخولها[٤]" قاصداً الفرنج بقوله:" رجل شيخ بذقن بيضـــاء وهـــو جسيم وعليه وقار"[٥]. وفي هذه المحادثات وضح تريفزاني للغوري أن البندقية (حلـــيف استراتيجي) للمماليك، وإنه لا يمكن أن تحل فرنسا محل البندقية في العلاقات التجارية

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩٥.

(٢) فهمي، طرق التجارة، ص٩٥؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص٣٣.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص ٣٤– ٣٥.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٥٩.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٥٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مع دولة المماليك، كما ناقش مسألة الرسوم الجمركية وتحديد أسعار التوابل[1]. وترتب على هذه السفارة توقيع معاهدة سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)، حيث عقدت اتفاقية تجارية بين السلطان قانصوه الغـوري والبنادقة سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م)[2] حصلت بموجبها البندقية على تسهيلات لسفنها، كما نظم التعامل النقدي والبيع بالمقايضة من الموانئ الشامية والمصرية من حيث تفتيش السفن وإحصاء المسافرين ومعرفة السلع وضبط الرسوم المستوفاة على البضائع الصادرة والواردة إلى الميناء، وقد شملت الاتفاقية ميناء طرابلس – وغيرها الموانئ الشامية – وكان مما جاء فيها :

١. لا نجبر على شراء السلع بالقوة منها ولا القطن ما عدا ما يخص السلطان أو الحاجب أو من يحل محلها.

٢. لـيس بإمكانـنا إعطاء الحاجب أكثر من ماله من الجوخ كل سنة هدية ومثلها لكل بيت تجاري.

٣. نعطي مطلق الحرية لشراء الموجود من المواد حسب حاجتنا[3].

واسـتمرت العلاقـات طيـبة بين الطرفين حتى نهاية عهد السلطان الغوري سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧)[4].

علاقات المماليك مع فرنسا .

ازدادت العلاقـات المملوكية الفرنسية منذ تولي السلطان الغوري سلطانه سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) إلى (٩١٧هـ/ ١٥١١م). وتمثل ذلك بالتجارة والعلاقات السلمية إلى أن هاجم فرسان

---

(١) فهمي، طرق التجارة، ص١٠٠- ١٠٤.

(٢) فهمي، طرق التجارة، ص١٠٤- ١٠٥.

(٣) خرابشـة، سليمان عبد العبد الله، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م، ص١٦٨- ١٦٩؛ إسكندر، توفيق، نظام المقايضة في تجارة مصر والعصور الوسطى، المجلة التاريخية، م٦، ١٩٥٧م، ص٣٧-٤٦؛ وللمزيد من المعلومات عن هذه الاتفاقية التجارية أنظر: عدرة، التجارة والتبادل التجاري، ص ٣٨- ٤٢.

(٤) هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص٤٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإسبتارية خمس سفن فرنسية كانت قادمة من أوروبا متجهة إلى الإسكندرية محملة بمختلف البضائع من الحرير والصوف وغيرها من السلع الأوروبية الأخرى وأسروا ما عليها من أسر مغربية. ثم قام الفرسان بإطلاق سراح السفن الفرنسية لتواصل السير إلى فرنسا[1]. وساد اعتقاد في مصر بأن اتفاقاً قد تم بين ربابنة السفن: الفرنسية، الإسبتارية، لذلك عمد السلطان الغوري إلى اتخاذ إجراءات انتقامية ضد الفرنسيين في مصر، ومنها: اعتقال جميع التجار الفرنسيين ومصادرة أموالهم وأملاكهم، مع اعتقال القنصل الفرنسي بالإسكندرية فيليب دي بيرتز[2].

يضاف إلى ما سبق فقد أقدم فرسان الإسبتارية على مهاجمة السفن المملوكية في حوض البحر المتوسط، مما أدى إلى تبدل موقف السلطان الغوري من محاولة إدخال فرنسا كوسيط سياسي في التفاوض مع فرسان الإسبتارية، لإعادة السفن المملوكية التي استولى عليها الفرسان[3]. وقد أعلنت فرنسا أن المحادثات فشلت مع ذلك فقد كان هناك نجاح جزئي تمثل في افتداء المماليك لأسرى المسلمين، كما رافق ذلك إجراء مفاوضات بين فرنسا والمماليك ترتب عليها عقد معاهدة بين الفرنسيين والمماليك[4].

وقد تضمنت هذه المعاهدة إعطاء تسهيلات تجارية وجمركية للتجار الفرنسيين في الموانئ المصرية والشامية، مع تسهيل وصول الحجاج الفرنسيين إلى القدس[5].

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٦؛ فهمي، طرق التجارة، ص٩٣.

- الإسبتارية: تسمية عربية محرفة من لفظة (*Hospitallers*)، وتعني فرسان المستشفى، أسسها تجار مدينة أمال في سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) كجمعية خيرية (بيمارستان) قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس للعناية بفقراء الحجاج الأوروبيين، انظر: سميث، جوناثان رايلي، الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بين المقدس وقبرص (١٠٥٠م- ١٣١٠م)، ترجمة صبحي الجابي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص٧؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٩.

(2) دراج، المماليك والفرنج، ص ١٤١- ١٤٢.

(3) فهمي، الطرق التجارية، ص٩٤، ٩٧؛ دراج، المماليك والفرنج، ص ١٤١- ١٤٢.

(4) دراج، المماليك والفرنج، ص ١٤٩- ١٥٠.

(5) فهمي، طرق التجارة، ص٩٧؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٥٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويؤكد ما ذهبنا إليه أحداث شهر محرم لسنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) إذ ترتب عليها أن السلطان الغوري سمح للسفير الفرنسي بزيارة كنيسة القمامة[١] ، وكان خروجه من مصر في ربيع الآخر سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م). فهو يقول: " اخلع السلطان على قاصد ملك الفرنج الفرانسة وأذن له بالسفر"[٢].

٤. مع الأسبان.

بعد عامين من سقوط غرناطة بيد النصارى الكاثوليك سنة (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م)، وصل مبعوثين من مسلمي الأندلس وأمراء المغرب إلى القاهرة يطلبون من السلطان الغوري مساندتهم، لذا قام السلطان بإجراءات انتقامية تمثلت: بطرد تجار الفرنجة المقيمين في السلطنة المملوكية، وإغلاق كنيسة القيامة ومنع الحجاج، وحينما وصلت هذه الأخبار إلى الملك فرديناند سارع إلى إرسال سفارة إلى مصر سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م)[٣].

إلا أن السلطان الغوري رفض مقابلة السفير الإسباني في بادئ الأمر وذلك احتجاجاً على قلة عدد حاشيته وعدم إحضار الهدايا[٤]. إلا أن هذا السفير الإسباني وبواسطة من الترجمان اليهودي الأسباني تغري بردى استطاع مقابلة السلطان. وقد طمأن السفير السلطان الغوري على المسلمين في الأندلس، مما دفع السلطان إلى إصدار الأوامر بإصلاح وترميم ما تهدم من الأماكن المقدسة في القدس، كما أعلن السلطان عدة تسهيلات تجارية في موانئ مصر وبلاد

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٥٥، ٢٩٦؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٥١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٨.

(٣) دراج، المماليك والفرنج، ص١٢٩.

(٤) دراج، المماليك والفرنج، ص١٣٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشـــام للـــتجار الأســـبان[1]. وبالمقابل قام الملك الإسباني بتشجيع التجارة مع المماليك، وأوفد القناصل إلى موانئ مصر وبلاد الشام كدليل على ذلك[2].

٥. العلاقة مع البابوية في روما وفرسان الإستبارية.

اضطر السلطان الغوري وبعد وصول البرتغاليين إلى شواطئ المحيط الهندي، إلى اتباع سياســـة الـــتهديد والضغط على البابا في أوروبا وبعض ملوك أوروبا. وتنفيذاً لهذه السياسة قام الغـــوري في سنة (٩١٠هـــ / ١٥٠٤م) بإرسال مبعوثيه إلى البابا يوليوس الثاني ودوج البندقية وفرديـــناند ملـــك أســـبانيا وفرديناند ملك البرتغال، مهدداً بإغلاق كنيسة القيامة[3]، وغيرها من الأماكن المقدسة[4].

أمـــا بالنســـبة للبندقـــية فقد أبدت موقفاً سلبياً في جوابها لمبعوث السلطان وأبدت أكثر عجزها عن تقديم المساعدة للمماليك[5].ولم يكن جواب البابا لمبعوثي الغوري أحسن من البندقية على الرغم أن تهديدات السلطان الغوري قد أثارت مخاوف البابا، ورأى ضرورة التدخل لحماية حجاج الفرنج وأماكنهم المقدسة، لذا سارع البابا بالكتابة لملك البرتغال[6]. إلا أن الملك البرتغالي لـــم يكـــن مستعداً لوقف حملاته عن الهند وأكد للبابا أنه لا داعي للخوف والفزع من تهديدات

---

(١) فهمي، طرق التجارة، ص٦٨؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٣٠-١٣١.

(٢) فهمي، طرق التجارة، ص٦٩.

(٣) دراج، المماليك والفرنج، ص١٣٤ .

(٤) الندوي، تاريخ الصلات، ص١٧٢.

(٥) دراج، المماليك والفرنج،ص١٣٤.

- علاقـــات المماليك مع البابا في (روما)، ترجع جذورها إلى سنة (٦٩١هـــ/١٢٩١م) أي بعد هزيمة عكا، حيـــث حاولت البابوية جاهدة إلى تحريم التجارة مع المسلمين عامة والمماليك خاصة، لذلك أصدرت البابوية مراسيم تضمنت عدم التعامل مع المماليك في تجارة المواد التي تدخل في صناعة الأسلحة والسفن كالخشب، والحديـــد، والكبريـــت، وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت إضافة إلى الرقيق الأبيض الذي كان أساس النظام المملوكي، أنظر: فهمي، طرق التجارة، ص٢٠.

(٦) دراج، المماليك والفرنج، ص١٣٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الغـــوري وحاول أن يطمئنه بعدم مقدرة الغوري على تنفيذها، لحرصه أولاً: على بقاء العلاقات التجارية مع تجار الفرنج، وثانياً: تمسكه بالرسوم التي يتقاضها من الحجاج النصارى[1].

فـــي الوقت الذي استطاع فيه البرتغاليون السيطرة ولو جزئياً على مياه المحيط الهندي، نشط فرسان الإسبتارية في البحر المتوسط وذلك بشن سلسلة من الغارات على السفن المملوكية مـــن أجـــل الاســـتيلاء على ما بها من بضائع والعمل على قطع خطوط المواصلات والتعاون الاقتصادي بين البندقية والمماليك أو بين العثمانيين والمماليك[2]. بالإضافة إلى إضعاف عزيمة المماليـــك فـــي مواجهـــة الخطـــر البرتغالي، ويبدو أن البرتغاليين كانوا على اتفاق مع فرسان الإستبارية لتحقيق ذلك. ومن أمثلة ذلك مهاجمة فرسان الإسبتارية لإحدى السفن التابعة للسلطان الغـــوري فـــي ميناء قبرص والاستيلاء عليها واقتيادها إلى جزيرة رودس في سنة (٩١١هـــ / ١٥٠٥م)[3]. وقـــد أجـــرى الغـــوري اتصـــالات عن طريق الأمير تغري بردي كبير التراجمة لاســـتعادة السفينة، إلا أنه فشل في ذلك، ونجح في مهمة ثانوية وهي شراء عدد كبير من أسرى المسلمين في جزيرة رودس ومعظمهم من المغاربة[4].

لـــم يمـــض على هذا العمل أكثر من أربع سنوات، حتى عاد الإسبتارية وهاجموا ميناء الطينة الواقع شرقي دمياط، في الوقت الذي كانت تجري فيه بناء تحصينات في الميناء، أشرف عليها الأمير تمرباي الهندي، وقد استطاعت البحرية المملوكية الانتصار عليه، والاستيلاء على مركـــبهم[5]. استمر هذا العمل العدواني وبلغ الذروة سنة (٩١٥هـــ /١٥١٠م) حيث قام فرسان

---

(١) فهمي، طرق التجار، ص ٧٨-٧٩؛ أحمد، بنورسول وبنو طاهر، ص٤٩٤.

(٢) فهمي، طرق التجارة، ص٩٧.

(٣) دراج، المماليك والفرنج، ص١٣٩.

(٤) دراج، المماليك والفرنج، ص١٤٠.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٦؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٤١. =

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإسبتارية بقيادة (دامارال) أمير البحر البرتغالي بمهاجمة ثماني عشرة سفينة مملوكية قادمة من ميـــناء الأسكندرونة، حاملة الإمدادات العسكرية إلا أنه لم يصل منها إلى مصر إلا سفينة واحدة فارغـــة، فلمّا بلغ هذا الخبر إلى السلطان الغوري: "تنكد إلى الغاية وامتنع عن الأكل يومين"[١].

ويعلق ابن إياس في أحداث سنة (٩١٦هـــ/ ١٥٠٠م) على ذلك بقوله: " تزايد شر الفرنجة في هذه السنة وكثر تعبثهم بالناس في البحر الرومي والبحر الهندي والأمر إلى الله تعالى"[٢].

نتيجة لهذه الممارسات من قبل الإسبتارية أقدمت السلطنة المملوكية على إجراءات مسّت الســـكان النصارى والتجار الإفرنج في السلطنة المملوكية وتمثل ذلك بإلقاء القبض على جميع التجار الإفرنج المقيمين بالإسكندرية ودمياط ومصادرة أموالهم. كما أن النصارى في القدس لم يكونوا بمنأى عن ذلك، إذ أقدمت السلطنة على اعتقال جميع الرهبان الفرنسيسكان المقيمين في دير صهيون، والاستيلاء على ما به من تحف وذخائر كما أغلقت الدولة كنيسة القيامة[٣].

يتضـــح ممـــا ســـبق أن الغوري كان يقصد من ذلك التهديد إثارة البابا وملوك أوروبا، للتدخل ووقف تعديات الإسبتارية وهجومهم المستمر على السواحل والثغور الإسلامية في البحر

=- الطينة : بليدة بين الفرما وتنيّس من أرض مصر، أنظر: الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٦٥؛ البغدادي، مراصد الإطلاع، ج٢،ص٩٠١.

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤،ص١٩٢؛ فهمي، طرق التجارة، ص٩٤؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٤٢؛ ايفانون، الفتح العثماني، ص٣٣.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور،ج٤، ص١٩٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩٢؛ ماهر، البحرية في مصر ، ص١٢٦.

- ديـــر صهيون يقع على جبل صهيون جنوبي القدس، وهو دير رومي قديم كان رئيسه يتولى الإشراف على شـــؤون الحجـــاج، ويلقـــب بحارس الأرض المقدسة، تعلوه غرفة يشار إليها"عليه صهيون الفوقانية"، أنظر: اليعقوب: ناحية القدس، ج٢،ص٤٦٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المتوسط حتى يتمكن الغوري من الاستعداد العسكري المناسب لوقف الخطر البرتغالي[١]، ولا سيما أن الإسبتارية كانوا يتمتعون بحماية البابا[٢].

إلا أن هذه الجهود لم يقدر لها النجاح وتحديداً بعد فشل جهود كل من السفير الفرنسي والترجمان تغري بردي في حل الخلاف والنزاعات بين فرسان الإسبتارية والسلطان الغوري[٣].

٦. علاقة المماليك مع البرتغال

كانت البرتغال أول دولة أوروبية فكرت بالقيام بحركة الكشوفات الجغرافية في أوائل القرن العاشر الهجري / أواخر الخامس عشر ميلادي،" وأول أمه أوروبية وصلت الشرق[٤]. وقد كان لهذه الاكتشافات الجغرافية عدة دوافع مختلفة فعلى الصعيد السياسي أراد البرتغاليون ربط الشرق بالغرب بوصولهم إلى الهند[٥]. وأصبح ملوكهم يلقبون ب "أسياد الملاحة والفتح والتجارة ببلاد العرب وبلاد الحبشة وفارس والهند"[٦]، وذلك بعد وصولهم إلى الهند كما أن البرتغاليين بشكل خاص وأوروبا بشكل عام كانوا يسعون إلى الحد من النفوذ الإسلامي في الشرق الأقصى، حتى أن البعض يعتبرها ردة فعل صليبية إزاء المماليك والعثمانيين الذين إجتاحوا أوروبا وسيطروا على أجزاء كبيرة منها[٧].

إلا أن الدافع الأهم الذي كانت تكمن وراءه هذه الاكتشافات إنما هو دافع اقتصادي واستعماري بحت، وهذا ما أشارت إليه كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية. فقد

---

(١) دراج، المماليك والفرنج، ص١٤٨-١٤٩.

(٢) إيفانون، الفتح العثماني، ص٣٣.

(٣) فهمي، طرق التجارة، ص٩٨-٩٩؛ دراج، المماليك والفرنج، ص١٥٠.

(٤) المليباري، تحفة المجاهدين، ص١٦٣؛ متولي، أحمد فؤاد، " البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي" ، على ضوء الوثائق التركية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الرابع، الرياض، ١٩٨٠م،ص٣٨٢.

(2) Diffie, Found ationsof The Portuges, Page , 181.

(3) Diffie, Ibid , Page, 185.

(٧) غوانمة، أيلة، ص٨١، ٨٥. Diffie, Ibid, Page 182.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كانـــت البضـــائع التي ترد إليهم من الهند لا بد أن تمر بالبحر الأحمر والمحيط الهندي، وكان البـــنادقة يـــنقلون هذه التجارة بواسطة سفنهم إلى أسواق أوروبا[1] وكانت البندقية هي الوسيط التجاري الوحيد في ذلك الوقت بين الشرق والغرب، وكان المماليك يفرضون على هذه البضائع رســـوماً باهظة لمرورها في أراضي دولتهم. وبوصول البرتغاليين إلى الهند بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح تمكنوا من حرمان السلطنة المملوكية من مصدر هام من مصادر ثروتهم. واســـتطاعوا الـــتخلص من هذه التبعية التجارية للمماليك أولاً وللبندقية ثانياً، واستطاعوا أيضاً الســـيطرة علـــى تجـــارة الهند وعلى طريق التجارة المتجه من الشرق إلى الغرب[2]. وحرص البرتغاليون كل الحرص على تحقيق أمر هام بالنسبة لهم وهو احتكار تجارة التوابل والذهب[3]. ولكـــي يحققوا هذه المطامع البرتغالية أرسل الأمير هنري الملاح ابن ملك البرتغال(٨٠٢هـــ / ١٣٩٤-٨٦٥هـــ/ ١٤٦٠م) عدة بعثات وحملات برتغالية للوصول إلى الهند عن طريق الطواف بحراً حول إفريقيا، ودون المرور في أراضي ومياه السلطنة المملوكية، وباكتشاف رأس الرجاء الصـــالح تحقـــق لهـــم ذلك الأمل[4].وقد استمرت هذه الحملات إلى أن تمكن الملاح البرتغالي بارتلمـــيودياز مـــن الوصـــول إلـــى أقصى الطرف الجنوبي لإفريقيا سنة (٨٩١هـــ/ ١٤٨٦م) واكتشـــاف رأس الرجاء الصالح. ثم تبعه فاسكودي جاما الذي وصل سنة (٩٠٤هـــ / ١٤٩٨م)

---

(١) متولي، البحرية العثمانية، ص٣٨٢؛ غوانمة، أيلة، ص٨١.

(٢) رمضان، الصراع البرتغالي في اليمن، ص ١٣٦؛ عباس، رؤوف، مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، القاهـــرة، ١٩٦٨م، ص٢١٦؛ لينبول، ستانلي، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ادوار هليم، مكتبة النهضـــة المصـــرية ، القاهـــرة، (د. ت)، ص٢٢٢؛ أبو عليان، عزمي محمد، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين في عهد المماليك، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٥م،ص٤٢٠

(٣) الصـــباغ، ليلى، تاريخ العرب الحديث المعاصر، (د.م) ، ١٩٨١، ص٦؛ أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٤٢٤ Winter, op.cit. , Page,5.

(٤) أبـــو عليان، مسيرة الجهاد، ص١٥٤؛ لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، طبعة جديدة ومنفتحة أعدها قسم الترجمة بمكتب السمو أمير دولة قطر، (د.م)،(د.ت)، ص١٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إلـــى موانـــئ شرق أفريقيا وموزمبيق وممبسة ومالينديّ[1]، ومن مدينة مالينديّ اتجه إلى الهند بمساعدة الملاح العربي"أحمد بن ماجد" فوصل إلى (قاليقوط) على الساحل الغربي للهند المسمى ساحل الملبار[2].

وهكذا تحققت آمال البرتغاليين بالسيطرة على سواحل المحيط الهنديّ وعلى تجارة الهند وعلـــى طـــرق التجارة المتجهة من الشرق إلى الغرب وبدأ احتكاك البرتغال بالمماليك واتخذت شكل العلاقة بينهما طابع الأصدام العسكري المسلح والمباشر[3]. فمن الطبيعي أن تدافع السلطنة المملوكـــية عـــن وجودها ولا سيما بعد ما خسرت الكثير، فلم تعد مصر المركز الرئيسي الذي تـــتجمع فـــيه السلع الشرقية ولم تعد هناك حاجة لوساطة البندقية، بل أصبح البرتغاليون هم من يـــتحكم بهـــذه الســـلع بعد الكشف عن مصادر وجودها. في ظل هذه الظروف الصعبة سياسياً واقتصادياً اضطر السلطان الغوري وبعد وصول البرتغاليين إلى الهند إلى اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لوقفهم عند حدهم ولإنقاذ دولة المماليك من الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له.

لجـــأ قانصـــوه الغوري إلى الوسائل السلمية تارة وإلى التهديد تارة أخرى، فأرسل إلى ملوك الدول الأوروبية يطلب منهم وقف التوسع البرتغالي، وحذرهم باتخاذ إجراءات عنيفة فيما

---

(1) المليـــباري، تحفـــة المجاهديـــن، ص١٥٥-١٥٦؛ لوريمـــر، دلـــيل الخليج، ص١١. Diffie , op.cit., Page,180

(2) غوانمـــة ، أيلـــة، ص٨١؛ محمود، حسن أحمد، "التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب" المؤرخ العربي، العـــدد الثاني عشر، مجلة تصدرها الأمانة العامة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٨٠م، ص٢٢٠؛ النهروالي، البرق اليماني، ص١٨-١٩.

- وقد اختلفت بعض المصادر في مسألة إرشاد ابن ماجد للبرتغاليين، فقد ذكر البعض منها أن المعلم (كانكا) أو المعلم (كانا) هو الشخص الذي تعاون مع البرتغاليين، أنظر: طه، عبد الواحد ذنون، "ابن ماجد من وصول البرتغاليـــين إلى الهند"، مجلة اليرموك، العددان (٤٤، ٤٥)، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٤م، ص٣١؛ آل خلـــيفة، عـــبد الله بن خالد، "مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي"، الوثيقة، مجلة دورية تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد العاشر، البحرين، ١٩٨٧م، ص١٦٠- ١٧٨.

(3) وللمزيد عن المعارك بين المماليك والبرتغاليين. أنظر: غوانمة، أيلة، ص٨٣-٨٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذا استمر البرتغاليون في موقفهم المعادي وتوسعهم في مياه المحيط الهندي وهدد بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته من التجار الرهبان وبإغلاق كنيسة القيامة في القدس[1]. إلا أن هذه الطريقة لم تجد نفعاً مع الدول الأوروبية مما دفع الغوري إلى الاستعداد العسكري الجيد واتخاذ كافة الوسائل والسبل للتغلب على البرتغاليين ووقف طغيانهم؛ لذا سارع بإرسال أول تجريدة إلى الهند سنة (٩١١هـ /١٥٠٥م)[2]. وكانت هذه الحملة بقيادة الأمير حسين الكردي باش تجريدة الهند ونور الدين المسلاتي، فتحركت هذه الحملة من السويس في نفس العام ومعهم النجارين والفعلة، فقاموا ببناء الأبراج في جدة[3]. أضف إلى ذلك قيام المهندس خايربيك المعمار ببناء الأبراج والقلاع في سيناء والعقبة في سنة (٩١٤هـ-١٥٠٨م)، وجعل الغوري المماليك يقيمون سنة ثم يعودون إلى مصر ويتوجه آخرون غيرهم، حماية للبحر الأحمر ومداخله من عبث البرتغاليين[4]. كما أمر الغوري في سنة (٩١٥هـ-١٥٠٩م) ببناء أبراج أخرى في نخل وعجرود على الطريق بين العقبة والقاهرة وقام بشحنها بالعساكر والعتاد[5].

وعلى ما يبدو ومن خلال ما ذكرته المصادر التاريخية فإن الوجود الفرنجي في البحر الأحمر كان قبل سنة (٩١١هـ / ١٥٠٥م)، فقد تمكن البرتغاليون من الوصول إلى الهند والسواحل الحجازية واخذوا يعترضون المراكب التجارية ويقومون بنهبها وسلبها، وقد تزايد

---

(1) الندوي، تاريخ الصلات، ص١٧٢؛ أبو عليان، مسيرة الجهاد، ص١٥٥؛ النمر، تاريخ الإسلام، ص٤٢٦.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٨٢، ٨٤.

(3) المليباري، تحفة المجاهدين ، ص١٦٧؛ سعيد، البحرية ، ص١٨٣؛ غوانمة، أيلة، ص٨٤.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٤، ١٥١.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٢.

- نخل: مدينة في قلب جزيرة سيناء، وفيها نخل إحدى القلاع التي بناها السلطان الغوري في درب الحج المصري، تبعد نحو (٨٠) ميلاً من العقبة، أنظر شقير، نعوم، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب، مطبعة المعارف، مصر، ١٩١٦م، ص١٥٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تحبست الفرنج هناك وازداد عدد مراكبهم فبلغت أكثر من عشرين مركباً[1]، واضطر السلطان الإسراع بإعداد الحملات البحرية المملوكية وقد توجه الأمير حسين الكردي بحملته صوب سواكن (في مياه الينبع المواجهة للمدينة المنورة)، وسيطر عليها دون حرب ثم اتجه إلى الموانىء اليمنية ومر بجيزان، كمران، المخا ثم إلى عدن لإحكام السيطرة على السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر حتى وصل إلى الهند[2]. وهناك التقى الأسطول المصري بقيادة الأمير حسين الكردي بالأسطول البرتغالي عند شول على الشاطئ الغربي للهند سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، وانتهت هذه المعركة البحرية بهزيمة الأسطول البرتغالي ومقتل قائده (لورنزو دالميدا) *Leranzo Dalmeida* وهو ابن فرانسكو دالميدا نائب ملك البرتغال في الهند وقد علق ابن إياس على هذا بقوله: "وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه إلى نحو بلاد الهند صحبته الأمير حسين قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يتعبثون في البحر وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة[3]. غير أن البرتغاليون استطاعوا في السنة التالية (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) أن ينتقموا لهزيمتهم بتحطيم الأسطول المملوكي في موقعة ديو البحرية، وقد ذكر أن من أسباب هزيمة الملك حسين الكردي غروره بقوته التي انتصرت على البرتغاليين، والمواجهة في عرض البحر وعدم الآخذ بنصيحة حاكم ديو بالبقاء في ميناء ديو لحماية ظهر السفن من جهة الميناء، فكانت النتيجة كما توقعها حاكم ديو[4].

---

(١) ابن إياس بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٩ .

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور ج٤، ص٩٦؛ غوانمة، أيلة، ص٨٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٢، الندوي، تاريخ الصلات، ص١٧٤؛ سعيد، البحرية، ص١٨٣؛ غوانمة، أيلة،٨٦.

(٤) شهاب، حسن صالح، عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ص ١٩٩-٢٠٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كان هذا النصر دافعاً للبرتغاليين للاستمرار في أطماعهم فحاولوا الاستيلاء على عدن سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) إلا أن محاولتهم هذه فشلت. ثم أعادوا الكرة للاستيلاء على عدن إلا أنهم لم يتمكنوا منها للمرة الثانية لحصانتها وقوة المقاومة التي أبداها سكانها[١].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[١] المليباري، تحفة المجاهدين، ص١٧٣.

الفصل الخامس

نهاية دولة المماليك

- الظروف الداخلية في دولة المماليك والتي سارعت على نهايتها

١. التنافس على السلطنة.

٢. انحلال النظام العسكري المملوكي.

٣. إفلاس الدولة وكثرة المصادرات والضرائب.

٤. انتشار الأوبئة والمجاعات.

- مقدمات الحرب بين المماليك والعثمانيين
- معركة مرج دابق "الأسباب والنتائج"
- تقدم القوات العثمانية إلى دمشق والقاهرة
- سليم الأول في القاهرة وسقوط دولة المماليك ونقل الخلافة إلى استنبول

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الظروف الداخلية في دولة المماليك التي سارعت على نهايتها

شـــهدت الســـلطنة المملوكية في الفترة الأخيرة من حكمها ظروفاً داخلية صعبة للغاية، عملت على ضعفها وسارعت في نهايتها ومن بين هذه الظروف والأسباب نذكر ما يلي:

١. التنافس على السلطنة:

كان التنافس على السلطنة سبباً واضحاً من أسباب ضعف دولة المماليك داخلياً، والدارس لـــتاريخ دولة المماليك يجد الكثير من الوقائع التي تشير إلى قيام الأمراء المماليك بالتمرد على السلطان بغية الوصول إلى السلطنة[١]. نذكر من ذلك تمرد الدوادار مصر باي في قلعة القاهرة، طامعـــاً في امتلاك هذه القلعة سنة (٩٠٧هـــ/ ١٥٠١م)[٢]. وعصيان كل من دولات باي الذي كان والياً على الشام وطرابلس، وسيباي نائب حلب ومحاولتهما حصار مدينة دمشق حتى كادا أخذها في سنة (٩١٠هـــ/ ١٥٠٤م)[٣]. وفي نفس السنة تكرر تمرد دولات باي وذكر أنه قصد حماة فقام بنهبها[٤]، وهذا ما سعى إليه الأمير قيت الرجبي مما جعل السلطان يلقي القبض عليه وكـــان هـــذا بسبب " أنه كان له الغرض التام بأن يتسلطن"[٥]. وكذلك كان الأمر بالنسبة لبقية الأمـــراء المماليـــك فقد ذكر ابن إياس:" وقع الاضطراب بين الأمراء وأشيع أمر الوثوب على السلطان"[٦].

وممـــا تجدر الإشارة إليه صعوبة حصر هذه الأمثلة فلا تكاد تخلو سنة من سنوات حكم الغـــوري إلا ونجد فيها العديد من هذه الشواهد. ولاشك أن محاولات التمرد والعصيان التي قام

---

(١) صباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٣٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٦- ٢٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٠.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٢.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٣.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٩٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بهـا أمـراء السـلطان الغـوري انعكست سلباً على السلطنة المملوكية من النواحي السياسية والاقتصـادية فقـد أصـبحت هذه المحاولات تشغل حيزاً في تفكير الغوري وكادت تؤدي إلى عرقلة سير الحكم في البلاد المصرية والشامية. وقد أشار إلى ذلك ابن إياس فقال:" فاضطربت الأحـوال وكثر القيل والقال فلما بلغ السلطان ذلك أحضر المصحف العثماني وحلّف عليه سائر الأمراء بحضرة الخليفة والقضاة الأربعة فحلفوا بأن لا يخونوه ولا يغدروه ولا يركبوا عليه"[1]. وللقضـاء علـى تطلعـات الأمراء وعصيانهم المستمر للدولة والسلطان، كان لابد من إرسال التجاريد العسكرية والإنفاق على العسكر فيها للقيام بمهمتهم على أكمل وجه[2].

٢. انحلال النظام العسكري المملوكي:

من المعروف أن المماليك في أول أمرهم كانوا يجلبون صغاراً إلى الدولة، ثم يتم تنشئتهم وتعليمهم وتدريبهم عسكرياً في أماكن خاصة تدعى الطباق، وكان ذلك في دولة المماليك الأولى إلا أن الأمـر اختلف كلياً في دولة المماليك الثانية، ولا سيما بعد ضعف الدولة اقتصادياً وفقدان أعـداد كبـيرة من أجنادهم بسبب الطواعين والأوبئة والثورات العديدة في نيابات بلاد الشام، فاضـطرت الدولة إلى شراء المماليك الكبار (الأجلاب) لأنهم أرخص ثمناً. وهؤلاء الكبار كان يصعب تعليمهم وتدريبهم كما لو كانوا صغاراً فمعظمهم أصحاب حرف وصناعات. حتى غدو مصـدراً للفوضى وعدم الاستقرار في الديار المصرية والشامية. وتسبب هؤلاء في العديد من الفتـن حتى لا تكاد تمر سنة واحدة من حكم الغوري إلا ونجد فتنة أو اضطراباً قام بها هؤلاء

---

[1] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨.

[2] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المماليك الأجلاب ومن تلك السنوات نذكر: (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)[١]، و (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)[٢] و (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)[٣]، و (٩١٧هـ/ ١٥١١م)[٤] و (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)[٥].

أن تلك الاضطرابات التي أثارها المماليك الأجلاب قد أساءت إلى الناس وألحقت بهم الكثير من الظلم بحيث غدا المماليك الأجلاب أداة للعبث والعدوان على الأهالي وفي هذا يقول ابن إياس:" فكان المماليك (الأجلاب) يخرجون ويخطفون الغنم غصباً، فحصل للناس غاية الضرر بسبب ذلك"[٦].

أضف إلى ذلك أن السلاطين أنفسهم لم يسلموا من أذية جلبانهم ولم تكن ممتلكاتهم بأمن من عدوانهم وسطوتهم ففي سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) " توجهت طائفة من المماليك الجلبان إلى شونة السلطان ونهبوا أشياء كثيرة من الشعير"[٧]. وقد وقف سلاطين المماليك موقف العاجز أمام خطر مماليكهم وتزايد شرهم، وقد بلغ بالسلطان الغوري أنه جمع المماليك الجلبان في الحوش بالقلعة وقال لهم:" أنا أخلع نفسي من السلطنة وولوا من تختاروه"[٨]. وعلى الرغم من ذلك فلم يكف السلاطين عن شراء أعداد كبيرة من المماليك حتى خاصكية الغوري بلغت سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) "نحو ألف ومائتي خاصكي من مشترواته"[٩].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٢٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨٠.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤١.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩٥.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩٥؛ طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٦٤.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤١.

– شونة: مخزن لخزن جميع أنواع الغلال والأخشاب والاتبان، أنظر:القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٧٥؛ البقلي، التعريف بمصطلح صبح الأعشى، ص٢٠٨.

(٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤١.

(٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣. إفلاس الدولة وكثرة المصادرات والضرائب :

كانـــت السلطنة المملوكية في أول أمرها تتمتع باقتصاد قوي ومتين، يستند بشكل أساسي إلـــى تجـــارة خارجية، واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب. ولكـــن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ووصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق الالتفاف حـــول إفريقـــية حرم سلطنة المماليك من مصدر ثروتها وقوتها، مما أدى فيما بعد إلى ضعف اقتصـــادها نتـــيجة لكســـاد تجارتهـــا مما ألحق بالدولة أزمة اقتصادية وأفقد خزينتها الكثير من الأموال.

أمام هذا الموقف المالي السيئ للدولة حاول الغوري تفادي هذه المشكلة الاقتصادية وعلاج هـــذه الأزمة المالية بإتباع وسائل غير مشروعة لتعويض خزينة الدولة عما فقدته. ومن ذلك ما لجـــأ إليه الغوري من مصادرة أموال الناس وأملاكهم، ففي سنة (٩٠٧هـــ/ ١٥٠١م) يذكر ابن إيـــاس أن المماليـــك عندما طلبوا النفقة من الغوري "ظل يصبّرهم نحواً من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات"[١].

ولـــم يكـــتف الغوري بذلك بل لجأ إلى أسلوب آخر من المصادرات وقطع أرزاق الناس وخاصـــة الفقهـــاء والمتعممين وحرمانهم من مرتباتهم العينية أو إنقاصها[٢]، وفي هذا يقول ابن إيـــاس:" وقطـــع جوامـــك ... (رواتب) من له جامكية في باب السلطان من الفقهاء والمتعممين وجماعة من الخوندات"[٣].

---

[١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٩.

[٢] الشربيني، مصادرة الأملاك، ج١، ص٩٢.

[٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كمـــا عمـــد الغـــوري أيضـــاً في سنة (٩١٥هـــ/ ١٥٠٩م) إلى قطع أضحيات كثير من المباشرين والفقهاء[١]. وفي سنة (٩١٤هـــ/ ١٥٠٨م) صادر الغوري ثلاثمائة إقطاع ورزقه من أولاد الـــناس والناس من غير سبب وأعطى ذلك لمماليكه الجلبان[٢]، وهذا ما لم يفعله السلاطين من قبله[٣]. ولم تسلم الأوقاف من هذه المصادرات ويذكر ابن إياس أن السلطان الغوري "تعرض للـــرزق الاحباسية والأوقاف"[٤]. هذا بالإضافة إلى الظلم الاجتماعي الذي اكتوى بناره الفلاحين في مصر والشام نتيجة لنظام الإقطاع العسكري أو الحربي، هذا النظام الذي حول الفلاحين إلى مجـــرد أقنان في الأرض، وإلزامهم بالعمل في هذه الإقطاعات بالقوة. حتى أن الكثيرين هجروا الأرض ورحلـــوا إلى المدن كالقاهرة ودمشق وسكنوا حولها في أعشاش من القش وسميت هذه الفـــئة الفقيرة بالحرافيش أو الأوباش وكانت هذه الفئة مثار قلق واضطراب وكره لدولة المماليك ونظامها.

أمـــا الوظائف فكانت تشرى أو تؤجر، ذُكر أن السلطان قانصوه الغوري خلع بنيابة صفد فـــي سنة (٩١٨هـــ/ ١٥١٢م) على شخص يدعى طراباي بعد أن سعى لديه بمال[٥]، وفي سنة (٩٢٢هـــــ / ١٥١٦م) رست ولاية شرطة القاهرة على يد الأمير ألماس أحد أمراء العشرات، بواحد وأربعين ألف دينار[٦]. ونتيجة لذلك تفشت الرشوة (البرطيل) وبيع أو شراء الوظائف. كل ذلك انعكس على الدولة والناس معاً، مما أدى إلى انهيارها أمام أول ضربة قوية توجه إليها من الخارج. فانهزمت أمام الأوروبيين ثم أمام العثمانيين.

---

(١) الشربيني، مصادرة الأملاك، ج١، ص١٣٨.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣٦.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٠١- ١٠٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٧.

(٦) الـــرزاق، أحمد عبد أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهئية المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م، ص ٣٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولجأ الغوري كذلك من أجل سدّ العجز في خزينة الدولة والحصول على المال إلى ضرب فلـوس جديـدة وإلغاء التعامل بالقديمة منها بعد أن ينادي عليها بسعر أقل مما كانت تباع فيه، يصل في معظم الحالات إلى الثلث[1]، وهذا ما أشار إليه ابن إياس، في سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م) حيـث يقول:" وفيه ضرب السلطان فلوساً جدداً وقد نقش عليها هيئة شباك. فوقف أمر الفلوس التي كانت قبل ذلك، وصارت السوقة لا تأخذ إلا الفلوس التي منقوش عليها الشباك"[2].

وزاد من اضطراب حالة النقود، التباين في التعامل بها بين الوزن والعدد، ففي حالة العدد تتعرض للقص والهرش والغش، فيخف وزنها. وفي حالة التعامل وزناً، فإنها تخلط بقطع الحديد والنحاس والرصاص وغيرها[3]، فيتوقف التجار عن التعامل بها، لعلمهم بعدم ثبات الدولة على حـال. وترتـب على ذلك أن تعامل التجار في معاملاتهم بحذر وقلق، وصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس[4]. وكانت سياسة تغيير الفلوس واختلاف أوزانها وقيمتها أن تعـامل الـناس بها بسعرين، سعر بالفلوس الجدد، وهي خفيفة الوزن وسعر بالفلوس العتق وهي مغشوشة ومخلوطة وتباع بالوزن[5].

وقـد تشدد السلاطين المماليك ومنهم الغوري في معاقبة الزغلية الذين يغشون النقود ففي سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) قبض السلطان على جمال الدين وقام بضربه وسجنه[6]. وكان الإجراء

---

(١) ابـن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٠، ٢٥١؛ قاسم، عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٧٨.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤.

(٣) قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص٨٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٢٧، ٣٢٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٣٨- ٣٣٩.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٣.

- جمال الدين : أحد موظفي دار الضرب في عهد السلطان الغوري، ذكر أنه أتلف سائر المعاملة من الذهب والفضـة في ذلك الوقت، مما أثار ذلك غضب السلطان الغوري عليه، فقرر عليه خمسة عشر ألف دينار، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إلـــى جانب تلك الضرائب المباشرة التي كان يفرضها السلطان الغوري على التجار، لجأ الغـــوري إلى فرض بضائع معينة على التجار يشترونها من السلطان بالأثمان التي يحددها هو وبالتالـــي يخسرون فيها خسارة كبيرة. ففي سنة (٩١٧هـــ/ ١٥١١م) " أرمى على التجار قاطبة شاشـــات وأزراً وأثواباً صوفاً، وأرمى على السوقة زيتاً وعسلاً وزبيباً ... لأجل النفقة"[١]، وقد تكـــرر مثل هذا التصرف من جانب السلطان سنة (٩٢١هـــ/ ١٥١٥م)، وقد تضرر التجار من ذلك كثيراً[٢].

٤. انتشار الأوبئة والمجاعات .

تعرضـــت الديـــار المصـــرية والشامية في عهد السلطان الغوري إلى العديد من الأوبئة والمجاعـــات والتـــي كان لها الأثر الكبير في زعزعة النظام الاقتصادي بل وانهياره في مصر وبلاد الشام. وقد أشار ابن إياس في أكثر من مناسبة إلى انتشار الطواعين عدة مرات في معظم الـــبلاد المصـــرية والشامية وأثرها على الناس. ففي سنة (٩٠٩هـــ/ ١٥٠٣م) ظهر الطاعون بالديـــار المصرية في ذي القعدة، واشتد في ذي الحجة واستمر حتى سنة (٩١٠هـــ/ ١٥٠٤م). وكثر الموت في الأطفال والمماليك والعبيد والجواري، ووصل إلى أربعة آلاف جنازة كل يوم، وعـــز وجود السكر النبات حتى بيع كل رطل بثمانية أضعاف البطيخ الصيفي والرمان[٣]. ففي ســـنة (٩١٢هـــ/ ١٥٠٦م) ظهر الطاعون في مناطق الصعيد[٤]، وفي سنة (٩١٧هـــ/ ١٥١١م)

---

[١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٢.

[٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٤٣.

[٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٦٣، ٧٦؛ قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص١٧٤.

[٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الوحيد الذي تتخذه الدولة في حالة اختلال أسعار صرف النقود، هو ضرب فلوس جديدة، والإعلان عن وقف التعامل بسابقتها مما يحقق الربح للدولة ويلحق الضرر بالتجار والمتعاملين بها. وثمة وسيلة أخرى لجأ إليها سلاطين المماليك للحصول على المال، فقد كان للضرائب والمكوس دور كبير في تحصيل الأموال، ومن هذه الضرائب ما عرف باسم المشاهرة والمجامعة، وكانت هذه سبباً في رفع أسعار البضائع وفقدان السلع وأحياناً كانت تعد وسيلة للانتقام من العامة. ففي رجب سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) "رسم السلطان بإعادة المشاهرة والمجامعة التي كانت على القمح والبطيخ وذلك حنقاً على الناس لأنهم احتجوا على الفلوس الجدد"[١]. وكانت هذه الضريبة "من أكبر أسباب الفساد في حق المسلمين"[٢]، فقد اضطر الباعة لتعويض قيمة هذه الضريبة عن طريق رفع ثمن السلع فأشتد الغلاء على العامة منها كثيراً.

ومما يجدر الإشارة إليه أن السلطان الغوري كان يضطر أحياناً إلى إلغاء هذه الضريبة في أوقات الغلاء والقحط والمجاعات وفي أخرى يقوم بإعادتها كما كانت وزيادة. ففي سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) أظهر الغوري العدل في الرعية ونودي في القاهرة بأن المشاهرة قد أبطلها السلطان ما ارتفعت له الأصوات بالدعاء، فلما مضى أمر الطاعون أعيدت كما كانت بل وزيادة[٣]. وفي سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) أسقط السلطان الغوري كثيراً من الضرائب مقدارها أربعون ألف دينار، بسبب خوفه من الطاعون "وكان السلطان موهوماً على نفسه"[٤]، وعندما انتهى الطاعون أمر بإعادة المشاهرة والمجامعة في نفس العام[٥].

---

[١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٢٨، ٣٢٩.

[٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٨.

[٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٧.

[٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤،ص٣٠٤.

[٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٢٨، ٣٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مات بقر كثير في البلاد الحلبية نتيجة الوباء فرخص لحم البقر وامتنع الناس عن أكله، حتى بيع الرطل منه بدرهم[1].

وفي سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) وصل الطاعون إلى الإسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يصل إلى القاهرة[2] وفي سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وخاف الناس على أنفسهم ووصلت أعداد المتوفين بالطاعون ما يقارب ثلاثمائة وخمسة وستون إنساناً[3]، وقد ظهر الطاعون في الشرقية ولم يصل إلى القاهرة[4].

ومن هذا يبدو أن الناس كانوا يتعرضون باستمرار للطاعون فكانوا بخوف دائم منه على أنفسهم وأولادهم. وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية انخفاض النيل وتعرض الحاصلات لبعض الآفات مما أدى إلى غلاء الأسعار وفقدان بعض السلع والبضائع من الأسواق ففي سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) توقف النيل عن الزيادة مما أدى إلى غلاء الأسعار وفقدان الخبز من الأسواق وبيع أردب القمح بخمسمائة درهم، وكذلك التبن حتى بيع الحمل منه بدينار أي (٣٠ درهم)[5]. وفي سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) حدث نقص في مياه النيل فارتفعت الأسعار وكثرت الحرائق وبيع أردب القمح بدينار أشرفي أي (٣٠٠) درهم بعدما كان بنصف دينار أي (١٥٠) درهماً. وهكذا استمر الحال ولم يثبت النيل على حد معين فتارة نجده يزداد وتارة ينقص، وقد ازدادت الأوضاع المالية سوءاً مع تعرض المحاصيل الزراعية إلى الآفات فعلى

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٥٧؛ نوا، فادي الياس، المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٨٢.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩٥.

– رشيد: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٣، ص٤٥؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، مج٢، ص٦١٧.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠١، ٣٠٢؛ الشربيني، مصادرة الأملاك، ج١، ص١٤٧.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٧٥.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٣٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سبيل المثال يذكر ابن إياس في أحداث سنة (٩٦٧هـ/ ١٥٦١م): "ثم حدث أمر الفأر تسلّط على الجرون وصار يقرض القمح والشعير وهو في سنبله، وهذا الفأر أمر من الله تعالى"[١].

- **مقدمات الحرب بين المماليك والعثمانيين :**

اجتمعت عدة أمور وظروف كان لها أثر كبير في اتخاذ السلطان الغوري موقفاً حازماً تجاه سياسة السلطان سليم التوسعية[٢]، وموقفه السلبي من سفراء الغوري ومعاملته لهم معاملة سيئة.

ففي رجب سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) وصلت الأخبار إلى حلب بأن السلطان سليم ألقى القبض على قاصد السلطان الغوري مغلباي أحد الدوادارية السكين. وقد حصل لهذا الدوادار الكثير من الظلم والبهدلة، فقد وضعه السلطان سليم بالحديد وقصد حلق لحيته يقول ابن إياس: "وقد قاسى منه البهدلة مالا يمكن شرحها"[٣]. ويبدو أن مهمته التي سافر من اجلها إلى ابن عثمان، كانت وراء ما حصل له من الظلم وسوء المعاملة فقد حمل للسلطان سليم كتاباً من السلطان الغوري، تضمنت أمور الصلح بينهما[٤]. وفي الوقت نفسه كان الغوري قد بعث للسلطان سليم الأمير كربتاي أحد الأمراء المقدمين ومعه هدية بلغت نحو عشرة آلاف دينار، وأخلع على ركن الدين قاضي عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشا خلعاً سنية، ثم سمح لهم بالعودة إلى بلادهم[٥]، دون أن ينتظر عودة قاصده إلى ابن عثمان، ويرى ما حصل له في

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢١٧.

(٢) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٧٣.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦١.

(٥) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦١، ٦٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

غـيابه، وقد علق ابن إياس على هذا :" وكان هذا عين الغلط من السلطان الذي أطلق قصاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباي دوادار سكين ويظهر ما يعتمد عليه"[1].

ولـــم تقـــف الأمور عند هذا الحد، فقد وصلت الأنباء إلى السلطان الغوري، أن سليم قد وصـــل بجيشه إلى عينتاب، وملك عسكره قلعة ملطية بهنسا وكركر وغيرها من القلاع، وكان لهـــذه الأخبار وقع شديد الأثر على مسامع الغوري، فاضطربت أحواله وأحوال عسكره[2]. فما كـــان من السلطان الغوري بعد سماعه هذه الأخبار السيئة، إلا أن أمر عسكره بالاستعداد لقتال "الباغـــي ابن عثمان"[3]. وزاد من عزم الغوري على مقاتلة السلطان سليم، الحالة التي جاء بها دواداره مغلـــباي مـــن عند ابن عثمان، وقد وصف ابن إياس حالته هذه " حضر مغلباي دوادار ســـكين وهو في حال النحس، بزمط أقرع على رأسه، وهو لابس كبر عتيق دنس، وراكب على اكديش هزيل، وقد نُهب بركه وأخذت خيوله قماشه"[4]. وزاد من الأمر سوءاً الأخبار التي جاء

---

(1) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٤٧.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦٤.

- عينـــتاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية، وهي من أعمال حلب، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص ١٧٦.
- ملطية: هي مدينة من بناء الإسكندر، فيه جامعها من بناء الصحابة، وهي من بلاد الروم مشهورة تناخم الشام، انظر: البغدادي، مراصد الاطلاع، مج٣، ص١٣٠٨.
- بهنسا: قلعة حصينة تقع قرب مرعش وسُميساط، وهي من أعمال حلب، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص٥١٦.
- كركر: قلعة حصينة تقع قرب ملطية، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٤٥٣.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦٤؛ عبد المنعم،الشرق الإسلامي، ص١٠٥.

(4) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٤٨.

- الـــزمط: لـــباس يوضـــع علـــى الرأس، فيغطي أعلاه وترتد أطرافه إلى أعلى، أنظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٨٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بهـا هذا الدوادار من عند ابن عثمان، ورفضه لصلح السلطان الغوري، وأخبر مغلباي أن ابن عثمان قال له:" قل لأستاذك يلاقيني في مرج دابق"[١].

أمام هذه الأوضاع والظروف السيئة التي لحقت بقصاد الغوري، وبعد أن تأكد الغوري من عزم السلطان سليم على محاربة بلاده، كان لابد له أن يعد العدة والعتاد لمواجهة ابن عثمان في مرج دابق.

- **معركة مرج دابق "الأسباب والنتائج"**

هـنالك أسباب مباشرة وغير مباشرة عجلت في حتمية اللقاء بين العثمانيين والمماليك، كـان بينها طموحات السلطان سليم التوسعية. فقد وضع لنفسه خطة توسعية نحو الشرق، وكان يطمح في انتزاع الأراضي المقدسة من سيطرة المماليك حتى يقوي مركزه في العالم الإسلامي مـن ناحية وضد الشيعة الصفويين من ناحية أخرى[٢]. وهذا ما أكده ابن زنبل بقوله:" السلطان سليم قبل أن يتسلطن كان حاكم طرابزان، ولكنه ذا همة عالية في طلب الملك والرياسة"[٣]. وقد بدأ السلطان سليم حكمه بالتخلص من اخوته وأبنائهم[٤]، وانعكس ذلك على علاقاته مع السلطان الغـوري، ففي سنة (٩١٨هـ /١٥١٢م) استجار أحد أولاد أحمد بيك بن عثمان ويسمى سليمان بالسـلطان الغـوري فأكرمه ورحب به ، بينما فرّ والده أحمد بيك من السلطان سليم إلى الشاه إسماعيل الصوفي وقد علق ابن إياس على ذلك بقوله " فما انشرح لذلك وخشي مما يأتي من هذه

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦٨.

(٢) شـبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص١١٤؛ عبد الحليم، مصر في عصر المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٧٣؛ العلبي، دمشق، ص ٣٩٥- ٣٩٦.

(٣) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٦.

- طرابزان (طرابزون): فرضة للروم على بحر نيطش، انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٩٢- ٣٩٣.

(٤) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٩؛ متولي، الفتح العثماني، ص٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحركة"[1]. وقد توفي سليمان بيك في صفر(٩١٩هـ/١٥١٣م)، وتبعه أخوه علاء الدين بيك في ربيع الأول (٩١٩هـ /١٥١٣م)[2]، وقد بقي هذان الشقيقان في مصر "وكان ترابهما بمصر وماتا بالطاعون"[3].

ومما لاشك فيه أن قدوم كل من سليمان بيك وأخيه علاء بيك إلى السلطان الغوري قد أثار غضب السلطان سليم ولم يكن يعتبر استقبال الغوري لأبناء أخيه عملاً ودياً، لكنه لم يظهر ذلك لانشغاله بشيء أهم بالنسبة له وهو الاستعداد للتخلص من الشاه إسماعيل الصوفي (الصفوي)[4].

على الجانب الآخر نجد أن السلطان الغوري كان حذراً في مسألة النزاع العثماني الصوفي (الصفوي)، فقد قرر وبعد مشورة أمرائه على لزوم الحياد في النزاع بين الصوفي (الصفوي) والسلطان سليم، كما عزم على إرسال تجريدة إلى حلب "حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصوفي"[5]، لذلك رفض الغوري عرض السلطان سليم بإقامة تحالف مشترك بينهما ضد الشاه إسماعيل الصوفي (الصفوي) [6]، ولم يكتف الغوري بذلك بل نجده يتحالف سراً مع إسماعيل الصوفي ضد السلطان سليم[7]، عندما أحس الغوري بخطر العثمانيين، وأرسل إليه عدة أفيال "في الخفية في خبر سر بينه وبين الصوفي"، ويختم ابن إياس ذلك بقوله "كما أشيع بين الناس بذلك". وكان الغوري يدرك أن هذه الاستعدادات والجيوش التي خرج بها السلطان سليم لا

---

(١) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٢٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٨٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٣.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٦؛ متولي، الفتح العثماني، ص٦٢.

(٤) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٣٠.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٧٦.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٧٢- ٢٧٣.

(٧) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٣١؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٧٥؛ متولي، الفتح العثماني، ص٧٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعقــل أن تكون من أجل الصفويين فقط، وإنما هدفهم الحقيقي هو السلطنة المملوكية بدليل قول ابــن إيــاس:" ولا تشــمتوا العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا ولابد من خروج تجريدة عن قريب"[١].

ومما زاد الأمر تعقيداً كما ذكر ابن زنبل وأدى إلى ازدياد حدة التوتر في العلاقات بين المماليك والعثمانيين، الموقف المعادي لحاكم إمارة (ذو القادر) علاء الدولة من طرف السلطان الغــوري، وامتناعه عن تقديم المساعدة لعسكر ابن عثمان في حربه مع الصفويين وعدم بيعهم شيئاً من الأكل ولا من غيرها، "وكان هذا سبب الحرب بين الغوري وبين السلطان سليم". وعلى ما يبدو فإن هذا الموقف السلبي لعلاء الدولة من ا لعثمانيين كان بتحريض من السلطان الغوري، وكــان هــذا واضحاً من مرسوم بعثه السلطان الغوري خفية لعلاء الدولة "يشكره على ما فعل ويغــريه علــى قــتال الســلطان سليم"[٢]. وقد يكون سبباً واضحاً في تعجيل قيام الحرب بين الطرفين[٣].

وقد ذكرت المصادر التاريخية المملوكية والعثمانية أن هناك أسباباً اقتصادية كانت وراء هــذا النزاع المملوكي العثماني، فقد تطلع العثمانيون إلى تلك الثروات الضخمة التي كان يتمتع بها المماليك، نتيجة سيطرتهم على خطوط التجارة العالمية من الشرق الأقصى إلى سواحل الشام أو عــبر البحر الأحمر إلى الموانئ المصرية[٤]. وقد زاد من تصميم العثمانيين على تحقيق هذا

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٧؛ متولي، الفتح العثماني، ص١١٩.

(٢) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٩؛ يحيى، مصر الحديثة، ص٦٦.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج٢، ص٢٣.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٣٥؛ يحيى، مصر الحديثة، ص٦٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأمـــر، فشل المماليك في التصدي للبرتغاليين، فأرادوا بذلك السيطرة على أملاك دولة المماليك وحماية التجارة الدولية القادمة من الشرق عن طريق إبعاد الخطر البرتغالي عنها[١].

أمـــام هـــذه ا لظروف والأوضاع السياسة والاقتصادية التي لحقت بالسلطنة المملوكية، تتضـــح حتمية اللقاء المملوكي- العثماني، ويبدأ الغوري باتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لحماية بلاده، ولا سيما بعد تأكده من زحف ابن عثمان على بلاده.

ففي يوم الأحد خامس عشرين رجب سنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦م) التقى الجيشان المملوكي والعثماني في مرج دابق[٢]، وقد استمرت من طلوع الشمس إلى بعد الظهر من ذلك اليوم[٣].

كانـــت المعركة في البداية لصالح المماليك "فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولـــة وأخـــذوا منهم سبعة صناجق، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق، فهمّ ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان. وقد قُتل من العسكر فوق العشرة آلاف إنسان، وكانت النصرة لعسكر مصر أولاً[٤]. إلا أن هذا النتيجة انقلبت لصالح العثمانيين، وكان هذا بسبب الإشاعة التي أطلقهـــا خايربك نائب حلب عن السلطان الغوري وعزمه على إبعاد جلبانه عن المعركة وترك القراصـــنة يقاتلون وحدهم فيها[٥]. على أثر هذه الإشاعة تقاعست المماليك القراصنة عن القتال واضـــطربت أحوالهـــم ولا ســـيما بعد قيام خايربك بإطلاق إشاعة ثانية كانت سبباً في هزيمة المماليـــك وانهـــيار قوتهـــم، وقد تضمنت هذه الإشاعة كما يقول ابن زنبل "الفرار، الفرار، فإن

---

(١) متولي، الفتح العثماني، ص٨٣- ٨٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٧١؛ متولي، الفتح العثماني، ص١٥٩.

(٣) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٥٢؛ عباس، تاريخ بلاد الشام، ص٣٧٦.

(٤) ابـــن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٦٩؛ طرخان، دولة المماليك والجراكسة، ص١٨١؛ عبد الحليم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، ص١٧٧.

(٥) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٤٩؛ متولي، الفتح العثماني، ص١٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السـلطان سليم أحاط بكم، وقتل الغوري، والكسرة علينا"[1]. انتهت هذه المعركة بمقتل الغوري، وانتصـار العثمانيين على المماليك، وقد بلغ عدد القتلى كما ذكرها ابن زنبل أربعة آلاف من العثمانيين وألفاً من الجراكسة[2].

تـرجع هـزيمة المماليك في مرج دابق إلى عدة أسباب منها: تفضيل الغوري لمماليكه الجلبان على مماليكه القرانصة ومحاولته تأخير اشتراكهم في المعركة وتقديم مماليكه القرانصة للحرب أولاً، وكانت حجة الغوري في ذلك كما ذكرها ابن زنبل "فإنه كان يحسب حسابهم خوفاً من مكرهم، فأمر بتقديمهم للحرب"[3].

كذلـك كان اختلاف صفوف الجند في عسكر الغوري واحداً من أسباب الهزيمة، فكانوا كمـا ذكر ا بن زنبل "ليس لهم رأي يرجعون إليه، ولا تدبير يقفون عليه"[4]. وخيانة كبار رجال السلطنة المملوكية للسلطان الغوري وتحريضهم للسلطان سليم وتشجيعه على أخذ بلاد المماليك ومنهم خايربك نائب حلب الذي أشاع مقتل الغوري فأدى إلى اضطراب صفوف المقاتلين وخيانة جان بردي الغزالي نائب حماة، ومحاولته الهرب مع مماليكه من المعركة متظاهراً بالهزيمة[5]، فكان ذلك سبباً في تشتيت العسكر وفرارهم.

أضـف إلـى ذلـك أن هنالك اختلاف كبير بين الجيش المملوكي والجيش العثماني من حيـث: قـيادة الجيش، وعدد أفراده، وسلاحه. فقد قاد الجيش المملوكي سلطان كبير في السن تجـاوز السـبعين من عمره ولم يمارس الحرب من قبل، في حين قاد الجيش العثماني السلطان

---

(1) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٨٢؛ طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٠١.

(2) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٣٣.

(3) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٨؛ العلبي، دمشق بين عصري المماليك والعثمانيين، ص٤٠٧.

(4) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٨ .Winter, op.cit.,page 6

(5) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٦٢؛ ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سليم وهو شاب يصغره بربع قرن[1]، وطبيعي أن يكون للسلطان سليم القدرة القتالية التي تفوق قدرة الغوري.

وكـــان الجـــيش المملوكي أقل عدداً من الجيش العثماني الذي اختلفت فيه الروايات، فقد ذكر بأنه بلغ مائة وعشرون ألفاً[2]، وذكر آخرون أنه بلغ نحو مائة وخمسين ألفاً[3]. بيـــنما لم يزد عدد أفراد الجيش المملوكي عن ثلاثين ألفاً[4]، أضف إلى ذلك أن الروح المعنوية التـــي تمـــتع بها الجيش العثماني عند التقائه بالجيش المملوكي، كانت عالية جداً، لما حققه من انتصارات عديدة في البلقان وانتصاره على الصفويين في جالديران، بينما كان الجيش المملوكي مفتقراً لهذه الروح، ولم تكن لديه تلك الخبرة والقدرة القتالية التي امتاز بها الجيش العثماني.

أمـــا بالنسبة لأسلحة الجيشين فقد تسلح الجيش المملوكي بأسلحة تقليدية كالسيف والرمح ولم تكن هذه الأسلحة قادرة على مواجهة أسلحة الجيش العثماني النارية كالمدافع والبنادق وربما يعـــود هذا إلى طبيعة الجندي المملوكي الذي اعتاد على الفروسية وركوب الخيل وحمل السيف والســـهام وكـــرهه لاســـتخدام الأسلحة النارية[5]. ولم يكن بمقدوره بأسلحته هذه أن يتفوق على الجندي العثماني بأسلحته المتطورة وقد وصف ابن زنبل هذا الأمر بقوله:" وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى، وكان يجئ كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء"[6].

---

(1) العلبـــي، دمشـــق بين عصري المماليك والعثمانيين، ص٤١١؛ نوار، الشعوب الإسلامية، ص٧٦؛ عباس، تاريخ بلاد الشام، ص٣٧٧.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٣.

(3) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩.

(4) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٥٨.

(5) آشـــتور، الـــتاريخ الاقتصـــادي، ص٤٢٥؛ يحيى، مصر الحديثة، ص٨٢؛ شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١١٥- ١١٦.

(6) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أضف إلى ذلك أن الأحوال الاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها السلطنة المملوكية قبيل مرج دابق وحرمانهم من مصدر ثرائهم، كانت واحدة من الأسباب التي عجلت في هزيمتهم أمام العثمانيين، وخاصة بعد فشلهم في صد العدوان البرتغالي عن مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، وسيطرتهم على التجارة العالمية[1].

- **تقدم القوات العثمانية إلى دمشق والقاهرة :**

بعد هزيمة المماليك في مرج دابق، توجهت فلول عسكر الغوري إلى مدينة حلب لعلهم يجدوا هناك المأوى والطمأنينة بعد هذه الكسرة التي لحقت بهم إلا أن أهلها منعوهم من دخول مدينتهم مصممين على الانتقام منهم لما ارتكبه هؤلاء العسكر في حقهم من جرائم بشعة أثناء توجهم لقتال ابن عثمان حيث أنهم "فسقوا في نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر لأهل حلب"[2]، وكذلك طمع أهل حلب في الأموال والخيل التي تركها العسكر لديهم "وصدوهم عن الدخول لأجل ذلك"[3]. ونتيجة لهذا الموقف المعادي من أهل حلب توجه هؤلاء العسكر من حلب قاصدين دمشق، وفي هذه الأثناء أقنع خايربك نائب حلب ابن السلطان الغوري بالتوجه بعسكره إلى مصر، "وأخبره أن شاه سوار نازل على جيلان بعشرين ألف فارس وهو قاصد أخذك، وأخذ حلب". وأكد له بأنه سيكون عوناً له عندما يعود إلى مصر ويصبح سلطاناً مكان أبيه، وقد أراد بذلك خايربك أن يسلم حلب للسلطان سليم من غير حرب[4].

---

(1) العلبي، دمشق، ص٤٠٨؛ آشتور، التاريخ الاقتصادي، ص٤٢٤- ٤٢٥.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٧٣؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٦٨؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٨٤.

(3) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٣٣- ٣٤؛ عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص٣٧٧.

(4) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٣٤.

- جيلان: بالكسر، اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وهي قرى في مروج بين جبال ينسب إليها جيلاني وجيلي. انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٢٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عـــندها دخل السلطان سليم إلى حلب فتقدم إليه الخليفة العباسي المتوكل على الله وثلاثة من القضاة[١]، معلنين له الولاء والطاعة.

أمـــا فلـــول الجـــيش المملوكي الذي تصدى لهم أهل حلب فقد وصلوا إلى القاهرة في رمضـــان سنة (٩٢٢هـــ/ ١٥١٦م) واجتمع رأيهم على تنصيب طومان باي سلطاناً عليهم "فإن الســـلطنة لا تصلح لأحد إلا لأشجعنا وأعقلنا. وخصوصاً نحن في أضيق الأحوال، وعدونا في طلبـــنا، كيف نسلطن علينا ولداً صغيراً؟ وإن كان هو ابن السلطان، ليس فيه كفاءة وقدرة على الســـلطة علـــى هذا الوجه وهذا الحال؟"[٢]. وقد رفض طومان باي هذا المنصب الجديد، وتعلل بعلـــل مخـــتلفة "منها أن خزائن بيت المال ليس فيها درهم ولا دينار، فإذا تسلطن ما ينفق على العســـكر شيئاً، ومنها أن ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف على مصر، وإن الأمراء لا يطـــاوعون علـــى الـــرجوع إلـــى السفر ثانياً، ومنها أنه إذا تسلطن يغدرون به ويركبون عليه ويخلعونـــه من السلطنة ويرسلونه إلى السجن بثغر الإسكندرية، ولا يبقونه في السلطنة إلا مدة يسيرة"[٣].

بـــدأ الســـلطان طومـــان بعد ذلك بتنظيم قوات جيشه والاستعداد لمرحلة جديدة صعبة واســـتخدام الأسلحة الحديثة البندقية والبارود لمواجهة العثمانيين[٤]، والثأر لهزيمة المماليك في مـــرج دابـــق، مما دفع بالسلطان سليم إلى إرسال كتاب إلى السلطان طومان كان يحمل التهديد والوعـــيد أن هـــو تمســـك برأيه، ولم يحكم باسم السلطان سليم في مصر، ولم يعترف بالسيادة

---

(١) ابـــن زنبل، آخرة المماليك، ص٣٥؛ عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص٣٧٦؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٦٩.

(٢) ابـــن زنـــبل، آخرة المماليك، ص٣٥؛ الجميل، تكوين العرب الحديث، ص٧٢؛ طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٠٤؛ عبد المنعم، الشرق الإسلامي، ص١١٥.

(٣) ابـــن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٠٣؛ طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٥٠٤؛ يحيى، مصر الحديثة، ص٨٧.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢١؛ الجميل، تكوين العرب الحديث، ص٧٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العثمانية[1]. يقول فيه:" إن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فأضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة، وتكون نائباً عنا بمصر، ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك"[2]. إلا أن تهديدات السلطان سليم هذه لم تقلل من عزم طومان في شيء ولم تثنه عن مواجهة العثمانيين، بل زاده ذلك إصداراً. وليس أدل على ذلك من التقاء الجيش المملوكي بقيادة السلطان طومان والعثماني بقيادة السلطان سليم في الريدانية خارج القاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين ذي الحجة سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[3].

بدأت نتيجة هذه المعركة لصالح المماليك، فقتل من العثمانيين عدداً كبيراً وكان من بينهم الوزير العثماني سنان باشا، إلا أن الأمور انقلبت لصالح العثمانيين، واستطاعوا التغلب على المماليك، فقتل من الجيش المملوكي أعداداً كبيرة[4]، ولم يتمكنوا من مواجهة مدفعية الجيش العثماني وعجزوا عن استخدام مدفعيتهم التي دفنت في الرمال بمشورة جان بردي الغزالي وكانت حجته في ذلك حتى لا يراها الجواسيس[5]. وهكذا تواصل الخيانة طريقها في صفوف المماليك من مرج دابق إلى الريدانية لتكون أحد أسباب هزيمتهم في المعركتين.

---

(١) ابن إياس، بدائع ا لزهور، ج٥، ص ١٢٤- ١٢٥، عبد الحليم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، ص١٧٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٥؛ ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٤٣؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص ١٨٦- ١٨٧؛ عبد المنعم، الشرق الإسلامي، ص١١٦.

(٣) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٤٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤٥-١٤٦، يحيى، مصر الحديثة، ص ١٠٠- ١٠١؛ عبد الحليم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، ص١٨٠.

(٥) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٤٩؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٨٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **سليم الأول في القاهرة وسقوط دولة المماليك ونقل الخلافة إلى استنبول :**

بعـد هـزيمة المماليك في الريدانية وهروب السلطان طومان[1]، توجه العثمانيون إلى القاهـرة في ذي الحجة سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) بقوة السيف، ونهبوا كل ما وجدوه أمامهم من أمـوال وقماش وغيرها وأخذوا يخطفون الصبيان والعبيد ويضيف "ثم توجهوا إلى شون القمح التـي بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال، وهذه الحادثة التي وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال"[2]. واستمر العثمانيون في النهب لمدة ثلاثة أيام بحجة البحث عن المماليك[3]، وفي يوم الجمعـة مـن ذلـك التاريخ خطب للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة، وترجم له بعض الخطـباء، فقال:" وانصر اللهم السلطان بن السلطان، مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصراً عزيزاً وأفتح له فتحاً مبيناً، يا مالك الدنيا والآخرة، يا رب العالمين"[4].

وبعـد أن اطمـأن السلطان سليم إلى أن عساكره قد احتلت القاهرة، وقضت على بقية المماليـك الجراكسة المنهزمة، دخل السلطان سليم مدينة القاهرة في موكبه في الثالث من محرم سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) فاستقبله الأهالي بالدعاء والترحيب[5].

---

(١) ابـن زنـبل، آخرة المماليك، ص٥٣؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٨٩؛ عبد الحليم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، ص١٨١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤٧.

(٣) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٨٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٤٨؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٨٦.

(٥) ابـن أجـا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٨٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٥٠؛ الراقد، الغزو العثماني، ص ١٨٦- ١٨٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمـــا طومان باي فلم ييأس أبداً وبقي مصمماً على الانتصار على العثمانيين، ففي الرابع مـــن محرم سنة (٩٢٣هـــ/ ١٥١٧م) هاجم طومان باي السلطان سليم بعساكر جمعها بعد فراره من الريدانية، وتمكن من احتلال أجزاء من القاهرة، عندها خُطب له على منابر القاهرة[١].

إلا أن الأمور لم تستمر لصالح السلطان طومان، فقد تقاعس وتخاذل جنوده عن القتال، واســـتمر طومان يقاتل وحده، حتى تمكن من الهرب[٢]، حتى أن العثمانية صارت "تكبس على المماليـــك الجراكسة في البيوت والحارات، فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه، ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها المماليك الجراكسة"[٣]. ثم نادى السلطان سليم بالأمان للذين اختفوا من الجراكســـة،" فلمـــا قـــابلوه وبخهـــم بالكلام وبصق على وجوههم وذكر لهم ظلمهم وما كانوا يصـــنعون"[٤]. ولم يكتف السلطان سليم بذلك، فقد احتجب عن الناس، وكثر الظلم في أيامه من "قـــتل وأخذ أموال الناس بغير حق"، بل أنه قد خالف من سبقوه ولم يمش على قواعدهم، بنشر العـــدل "وأخـــرب غالـــب الأماكـــن التـــي بالقلعة وفك رخامها ونزل به مراكب يتوجهون إلى الاستنبول"[٥]. ونتيجة لذلك فلم يجد طومان من سبيل سوى الإذعان للصلح، وقد علق ابن إياس علـــى ذلـــك بقوله:" فلما ضجر مما قاساه من الحروب والشرور" لذلك أرسل السلطان إلى سليم يفاوضـــه في الصلح، وقد تضمن هذا الصلح، أن يكون طومان نائباً عن السلطان سليم في حكم مصـــر، ويجعـــل الخطبة والسكة باسمه، ويجعل إليه خراج البلاد. وقد اشترط طومان في تنفيذ ذلك أن يرحل السلطان سليم وجنوده عن مصر، وقد ختم السلطان طومان باي كتاب صلحه إلى

---

(١) ابـــن أجـــا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٨٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٥٣- ١٥٥؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٩١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٥٥.

(٣) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين، ص٢٨٦- ٢٨٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٥٦.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٥٩؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٩٢.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٦٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السلطان سليم "وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقيني في بر الجيزة، ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء منا"[1]. وكان طومان باي يرى أن "الصلح أصلح إلى صون دماء المسلمين"[2].

وعندما تأكد السلطان سليم من إصرار طومان باي على قتاله خرج بمجموعة والتقى بطومان باي عند الجيزة في موقعة وردان في ربيع الأول سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) فكانت الكسرة على العثمانيين أولاً ثم دارت على المماليك وانتهت المعركة بهزيمتهم[3]، وهرب السلطان طومان وتوجه سليم بعد ذلك لمشاهدة الأهرام[4].

ظلت الأحداث تسير لصالح العثمانيين حتى بعد التجاء السلطان طومان باي إلى حسن بن مرعي وابن عمه شكري شيوخ البحيرة، وقد كانت الصداقة تجمع بين طومان وحسن بن مرعي، ومع هذا لم يتردد حسن بن مرعي في إخبار العثمانيين عن مخبأ طومان، ولم يصون العهد. فأرسل يخبر السلطان سليم بضيافته لطومان باي عندها أخبر الوزير يونس باشا السلطان سليم أنه "لولا الشيخ حسن بن مرعي هذا ما كنا عرفنا له طريقاً"[5]. وهكذا كانت نهاية السلطان طومان باي، حيث أمر السلطان سليم بإعدامه على باب زويلة "وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٦٦؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٩٢.

- الجيزة: في لغة العرب تعني الواد، أو أفضل موضع فيه، وهي بليدة غربي فسطاط مصر قبالتها، وهي من أفضل كور مصر، انظر: الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٢٠٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٦٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٧١.

- وردان: تقع منطقة وردان على بعد ٥٠كم شمال القاهرة، عندها خاض السلطان طومان معركته الأخيرة مع السلطان سليم، انتهت هذه المعركة بهزيمته إلى شيوخ أحد قبائل العربية حسن بن مرعي، الذي سلمه بدوره إلى العثمانيين ليشنق على أحد أبواب القاهرة، انظر: اللحام، معجم المعارك الحربية، ص٣٥٢.

(٤) طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٩٣؛ عبد الحليم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، ص١٨١.

(٥) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص ١٣٢- ١٣٣؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٩٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقـــع على الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس"[١]. وقد ذكر ابن زنبل "أن السلطان سليم لم يكن في نيته قتل السلطان طومان باي وإنما كان السبب في ذلك خايربك نائب حلب وجان بردي الغزالي"[٢]. وبمقتل السلطان طومان انتهت السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام، وزال حكم المماليك الجراكسة، وأصبحت تابعة للدولة العثمانية.

بعـــد أن ملك السلطان سليم البلاد المصرية والشامية سافر إلى استنبول وأصطحب معه الأمـــوال، والذهب، والفضة، والنحاس، والتحف، التي قام بنهبها، كما رافقه إلى بلاده البنائين، والمهندسين، النجارين، والحجارين، والحدادين، والمرخمين، والمبلطين[٣]. وذلك بسبب المدرسة التي قصد ابن عثمان أنه ينشئها باستنبول مثل مدرسة السلطان الغوري.

أما فيما يتعلق بمصير الخليفة المتوكل والخلافة العباسية بعد زوال سلطنة المماليك، فقد كـــان الخليفة صاحب الحل والعقد في مصر في أثناء وجود السلطان سليم، ثم سافر هذا الخليفة وأولاد عمه خليل إلى استنبول بصحبة السلطان سليم[٤]. وكان هذا تأكيداً من السلطان سليم على إبقاء الخلافة العباسية لإضفاء الشرعية على حكمه لبلاد مصر والشام. وبذا انطوت صفحة هامة مـــن تـــاريخ مصر وبلاد الشام دامت زهاء ثلاثة قرون كانت تحت حكم دولة المماليك الأولى والثانـــية. ورغـــم كـــل ما يقال عن سلبيات حكم المماليك إلا أنهم كانوا سيوفاً إسلامية شرعت وجـــاهدت بقوة واقتدار ضد الوجود الفرنجي (الصليبي) في بلاد الشام، وحرروا مدنه وسواحله من هذا الحكم الغربي الاستيطاني الاستعماري لبلادنا. ولا بد أن نذكر لهم ذلك بالفخر والاعتزاز

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٧٦؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص١٩٨.
- زويلة: محلة وباب بالقاهرة، انظر: البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٦٤.

(٢) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٤١؛ الراقد، الغزو العثماني، ص١٩٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٨١- ١٨٢؛ طرخان، دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٠٥- ٢٠٦.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص١٨٣؛ فهمي، طرق التجارة، ص٣٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والـــتقدير. وبذا دخلت الأمة العربية تحت حكم عثماني جامد دام أربعمائة عام انعكس سلباً على عطاء هذه الأمة وازدهارها وتقدمها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمـــــة

توصلت في هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

١. تعتــبر الفترة التي اعتلى فيها السلطان الغوري الحكم، من أهم الفترات الحاسمة في تاريخ مصر وبلاد الشام، وأن كانت انتهت باستيلاء العثمانيين على السلطنة.

٢. كــان لسوء الأوضاع الاقتصادية في مصر وبلاد الشام الدافع الرئيسي وراء اتباع الغوري سياسة مالية متقشفة، والتي تمثلت بتخلي الغوري عن كثير من العادات المتبعة في عهد من سبقه من السلاطين، ومنها عدم التزام الغوري بدفع نفقة البيعة.

٣. تعتــبر المؤسسة العسكرية في عهد الغوري في مصر وبلاد الشام امتداداً للجيش المملوكي في عهد من سبقه من السلاطين من حيث تسليحه وتنظيمه.

٤. كــثرت فتن أمراء المماليك وجلبانهم في فترة حكم السلطان الغوري، ويعود ذلك إلى سوء الأحوال الاقتصادية، نذكر من ذلك تأخر الغوري في دفع الرواتب لأجناده.

٥. لقد كان لتعرض السلطنة المملوكية للطواعين والأوبئة، إضافة إلى تدهورها الاقتصادي أن لجأ السلطان إلى تجنيد المماليك الأجلاب (كبار السن) والذين كانوا يسببون الفوضى والفتن داخل الدولة.

٦. اتبع السلطان الغوري سياسة المصادرات، ولم تقتصر هذه المصادرات على أموال الأغنياء من أمراء وتجار بل امتدت إلى أموال الأوقاف في كثير من الأحيان.

٧. قام السلطان الغوري بجهود كبيرة للدفاع عن مصر وبلاد الشام من الاعتداءات الأوروبية.

٨. كان لوصول البرتغاليين إلى الهند، أن حرم المماليك من مصدر ثرائهم وانهيار اقتصادهم.

٩. كان للصراع المملوكي العثماني دوافعه السياسية والاقتصادية، فقد كانت مصر وبلاد الشام ضمن خطة السلطان سليم التوسعية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٠. اتحـــلال النظام المملوكي العسكري، وتمسكهم بنظام الفروسية بأسلحته التقليدية، وخيانة الأمـــراء المماليـــك، أمثال خايربك وجان بردي الغزالي، أثره الواضح في هزيمة المماليك أمام العثمانيين.

١١. وبانهيار دولة المماليك، دخلت الأمة العربية تحت حكم عثماني جامد دام أربعمائة عام.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **مصادر البحث ومراجعه :**

١. المصادر العربية المخطوطة.

٢. المصادر العربية المطبوعة

٣. المراجع العربية الحديثة.

٤. المراجع الأجنبية المعربة.

٥. الرسائل الجامعية.

٦. الدوريات العربية.

٧. الكتب والمقالات الأجنبية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أولاً: المصادر العربية المخطوطة :

- الكرمي، مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي (ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م)

نزهة الناظرين في تاريخ من تولى مصر من الخلفاء والسلاطين، مخطوط ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات مكتبة الجامعة الأردنية، رقم (١٥١) وهو مصور عن مخطوط محفوظ في المغرب/ الخزانة العامة، الرباط تحت رقم (٦٠٧).

- اليمني، عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الإمام (ت ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م)

روح الروح فيما حدث بعد التاسعة من الفتن والفتوح، مخطوط ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات مكتبة الجامعة الأردنية، رقم (١٠١) وهو صورة عن مخطوط في جامعة برنستون، تحت رقم (٦١٨).

- سجل شرعي محكمة القدس، رقم (١٥)، تاريخه ١٣/ ذو الحجة، (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م).

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة

- ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)

العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن محمد الدوادار، صنعة محمد أحمد دهمان، دار الفكر، (د. ت).

- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) .

بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٤+٥، كتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م.

- بامخرمة، عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)

قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، وقد نشرها محمد عبد العال أحمد، تحت عنوان

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د. ت).

- البدر العيني، محمد بن أحمد (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٦٢م.

- **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع مج ١+ ٢+ ٣، تحقيق وتعليق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤م.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٨+ ١١+ ١٤+ ١٥+ ١٦، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** جـ ٢+ ٤، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

- الجزيري، عبد القادر محمد بن عبد القادر (ت ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م)

الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المنظمة، جـ٢، منشورات دار اليمامة، الرياض، (د. ت).

- ابن حجر، شهاب الدين أحمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة جـ٢، حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جاد الحمد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

- الحموي (ياقوت)، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

معجم البلدان، مج١- ٥، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

- الحميري، محمود عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)

الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.

- الحنفي، قطب الدين (ت ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م)

تاريخ القطبي المسمى كتاب الأعلام بإعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، شرح وتعليق محمد طاهر، المكتبة العلمية، مكة المكرمة، (د. ت).

- الدوادار، بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)

كتاب التحفة المملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.

- ابن زنبل، أحمد الرمال (ت ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م)

آخـــرة المماليك واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، (د. م)، (د. ت).

- السويدي، أبو الفوز محمد أمين البغدادي (ت ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م)

سبائك الذهب في معرفة قبائل وأنساب العرب، منشورات مكتبة بسام، العراق، (د.ت).

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي وآخرون، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦م.

- ابن صصري، محمد بن محمد (ت بعد عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)

كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية جـ٢، عني بتحقيقه وترجمته ونشره وليم م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بيريز، مطبعة جامعة كاليفورنيا، بركلي ولوس أنجلوس، ١٩٦٣م.

- الصرفي، علي بن داود الخطيب الجوهري (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)

نـــزهة الـــنفوس والأبدان في تواريخ الزمان جـــ١، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.

- ابن طولون، شمس الدين (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)

أعـــلام الـــورى فمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق محمد دهمان، دار الفكر، (د. ت).

- **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** جـــ١+ ٢، حققه وكتب له المقدمة والحواشي محمد مصـــطفى، المؤسســـة المصـــرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

- الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٩٣هـ/ ١٤٦٨م)

زبـــدة كشـــف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)

شـــذرات الذهب في أخبار من ذهب جـــ٨، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د. ت).

- الغزيّ، نجم الدين (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)

الكواكـــب الســـائرة بأعيان المئة العاشرة جـــ١، حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د. ت).

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود والبارون كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)

تاريخ ابن الفرات جـ٦، عنى بتحرير نصه ونشره قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦م.

- ابن فرج، عبد القادر (ت ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م)

السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق وترجمة أحمد بن عمر الزيلعي وريكس سميث، (د. م)، ١٩٨٧.

- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)

التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، منشوؤات جامعة مؤتة، مؤتة، ١٩٩٢م.

- **مسالك الأبصار في ممالك الإمصار**، تحقيق دورتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م.

- القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م)

أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، (د. ت).

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ٣+ ٤+ ٥+ ٧+ ١٣+ ١٥، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، (د. ت)، جـ ٢+ ٣+ ٤+ ١٣+ ١٤، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.

- **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، حققه ووضع فهارسه. إبراهيم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأبياري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

- **مآثـــر الأنافـــة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد مزاج، عالم الكتب، بيروت (د. ت).

- **نهايـــة الأرب فـــي معـــرفة أنســـاب العرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

- **مجهـــول، خـــزانة الســـلاح**، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

- مقديش، محمود

نـــزهة الأنظـــار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري وآخرون، دار العربي الإسلامي، (د. م)، (د. ت).

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـــ/ ١٤٤١م)

البـــيان والإعـــراب عمـــا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي جـــ٢+ ٣**، تحقيق محمد زينهم وآخرون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

- الملطي، عبد الباسط بن خليل بن شاهين (ت ٩٢٠هـــ/ ١٥١٤م)

نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩١٧م.

- المليباري، أحمد زين الدين المعبري (ت بعد عام ٩٩١هـــ/ ١٥٨٣م)

تحفـــة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، قدم له وحققه محمد سعيد الطريحي، مؤسسة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الوفاء، بيروت، ١٩٨٥م.

- ابـــن مـــنقذ، الأمـــير مظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن منقذ الشيرزي الكناني، (ت ٥٨٤هـــ/ ١١٨٨م)

كتاب الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ١٩٧٨م.

- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت ٩١٧هـــ/ ٩٩٠م)

البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات دار اليمامة، الرياض، (١٩٦٧م).

- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـــ/ ١٦٨٩م)

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفاتح عاشور، مراجعة محمد مصطفى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة

- أباظة، فاروق عثمان

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩- ١٩١٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

- أحمد، محمد عبد العال

البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، نصوص جديدة مستخلصة مـــن مشاهدات المؤرخ اليمني "بامخرمة" سجلها في مخطوط قلادة النحر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د. ت).

- بـــنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، دار المعرفة الجامعية،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإسكندرية، (د. ت).

- الإمام، رشاد

مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م.

- أمين، حكيم السيد

قيام دولة المماليك الثانية، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٦م.

- برجاوي، سعيد أحمد

الإمبراطور العثمانية، الأهلية للنشر والتوزيع، (د. م)، (د. ت).

- البقلي، محمد قنديل

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

- توا، فادي إلياس

المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك، بيروت، ١٩٩٨م.

- جمعة، بدائع محمد،

الشاه عباس الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

- جميل، سيار كوكب

تكوين العرب الحديث، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩١م.

- الحداد، علوي بن طاهر

المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، ترتيب وتحقيق محمد ضياء شهاب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٥م.

- الحياري، مصطفى

الإمارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- خرابشة، سليمان عبد العبد الله

نيابة طرابلس في العصر المملوكي، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م.

- خورشيد، إبراهيم زكي

دائرة المعارف الإسلامية، الشعب، القاهرة، (د. ت).

- دحلان، زيني

أمراء البلد الحرام، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

- دراج، أحمد

المماليك والفرنج، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م،

- دهمان، محمد أحمد

معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠.

- الرزاق، أحمد عبد أحمد،

البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.

- رافق، عبد الكريم

بلاد الشام ومصر، دمشق، ط٢، ١٩٦٨م.

- الراقد، محمد عبد المنعم

الغزو العثماني لمصر، مؤسسة شباب الجمعة، (د. م)، (د. ت).

- رشدي، راسم

مصر والشراكسة، دار صوت النازيين، (د. م)، (د. ت).

- الزركلي، خير الدين

الأعلام، قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

- زقلمة، أنور

المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

- زيتون، عادل

تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، ط٤، ١٩٩٢م.

- السباعي، أحمد

تأريخ مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، (د. م)، ط٦، ١٩٨٤م.

- سعد، أحمد صادق

تاريخ مصر الاجتماعي-الاقتصادي، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩م.

- سعيد، إبراهيم حسن

البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ١٩٣٨م.

- السيد، محمود عبد الكريم

تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

- شاكر، محمود

التاريخ الإسلامي في العهد المملوكي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

- شبا رو، عصام

السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، (د.ت).

- شتا، إبراهيم الدسوقي

المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢م.

- الشربيني، البيومي إسماعيل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مصادرات الأملاك في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

- شرف الدين، أحمد حسين

اليمن عبر التاريخ، (د.م)، ١٩٦٤.

- ششه، نوال سراج

جدة في مطلع القرن العاشر الهجري، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦.

- شقير، نعوم

تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب، مطبعة المعارف، مصر، ١٩١٦م.

- شهاب، حسن صالح

عدن، فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٩٠م

- الصباغ، ليلى

تاريخ العرب الحديث المعاصر، (د.م)، ١٩٨١م.

- الصرفي، رزق الله منقريوس (ت بعد عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)

تاريخ دول الإسلام، ج٣، الفجالة، مصر، ١٩٠٨م

- ضرار، محمد صالح

تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، (د.م)

- ضومط، انطوان خليل

الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢م.

- طرخان، إبراهيم علي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مصـــر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠.

الـــنظم للإقطاعـــية في الشرق الأوسط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

- طقوش، محمد سهيل

تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، القاهرة، ١٩٩٧م.

- العارف، عارف

المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٦١م.

- عاشور، سعيد عبد الفتاح

مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت،١٩٧٢م.

- عباس، إحسان

تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٨م.

- عباس، رؤوف

مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، القاهرة، ١٩٦٨م.

- عبد الحليم، عبد العزيز محمود

مصر في عصري المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م.

- عبد الغني، عارف

تاريخ أمراء مكة، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٢.

- العبدلي، أحمد بن فضل الله

هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠م.

- عبد المنعم، صبحي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشرق الإسلامي زمن العثمانيين، العربي للنشر، القاهرة، (د.ت).

- عثمان، شوقي عبد القوي

تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٠م.

- عدوان، أحمد محمد

العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، دار الكتب للنشر، الرياض،(د.ت).

- العريني، السيد الباز

المماليك، دار النهضة العربية للطباعة، (د.م)، ١٩٦٧م.

- عزام، عبد الوهاب

مجالس السلطان الغوري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩١٤م.

- عزت، يوسف

تاريخ القوقاز، دار صوت النازيين للنشر، (د.ت).

- عماره، محمد

قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣م.

- العمري، حسين بن عبد الله

الأمراء والعبيد والمماليك في اليمن، دار الفكر المعاصرة، بيروت، (د.ت).

- العلبي، أكرم

دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٢م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- أبو علیان، عزمي محمد

مسـيرة الجهـاد الإسـلامي ضد الصلبيين في عهد المماليك، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٥م.

- غرايبة، عبد الكريم

العرب والأتراك، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٦١م.

- غوانمة، يوسف درويش

أيلـة (العقـبة) والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والإستراتيجية، دار هشام للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٨٤م.

- **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي**، وزارة الثقافة والشباب، عمان ١٩٧٩م.

- **التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأول**، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩م.

- **في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية**، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٠م.

- **تاريخ نيابة بيت المقدس**، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م.

- فريدبك، محمد

تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م.

- فهمي، نعيم زكي

طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٣م.

- قاسم، قاسم عبده وآخرون

الأيوبيون والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الرياض،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٩٩٥م.

- **عصر سلاطين المماليك**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.
- كوثراني، وجيه

الفقيه والسلطان، منشورات دار الرشيد، بيروت، ١٩٨٢م.

- اللحام، ماجد

معجم المعارك الحربية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م.

- ماجد، عبد المنعم

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الرسالة، ١٩٦٤م.

- ماهر، سعاد

السبحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (د.م)،(د.ت).

- متولي، أحمد فؤاد

الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.

- مصطفى، إبراهيم

المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران، (د.ت).

- مصطفى، شاكر

موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- مورتيل، ريتشارد

الأحـــوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض، ١٩٨٥م.

- الندوي، محمد إسماعيل

تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).

- النمر، عبد المنعم

تـــاريخ الإســـلام في الهند، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م.

- نوار، عبد العزيز سليمان

الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة بيروت، ١٩٧٣.

- يحيى، جلال

مصر الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت).

- اليعقوب، محمد أحمد سليم

ناحية القدس الشريف، منشورات البنك الأهلي، الأردن، ١٩٩٩م.

رابعاً : المراجع الأجنبية المعربة:

- آشتور، أي

الـتاريخ الاقتصـادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبله، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، ١٩٨٥م.

- اوزتونا، يلمازا

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تاريخ الدولة العثمانية، استنبول، ١٩٩٠م.

- اوغلي، أكمل الدين إحسان

الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح شعكاوي، استنبول، ١٩٩٩م.

- ايفانون، نيقولاي

الفتح العثماني للأقطار العربية، نقله إلى العربية يونس عط الله، راجعه وقدم له مسعود الفارابي، (د.م)،(د.ت).

- ديل، شارل

البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وآخرون، ملتزم الطباعة والنشر دار المعارف بمصر،(د.ت).

- رينو، جوزيف

الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي، تعريب أحمد عزت عبد الكريم، وآخرون، ملتزم الطباعة والنشر دار الحداثة، الجزائر، ١٩٤٨م.

- سميث، جوناثان رايلي

الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص(١٠٥٠-١٣١٠م)، ترجمة صبح الجابي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م.

- سيديوت

خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار، بيروت، (د.ت).

- كوبريلي، محمد فؤاد

قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٣م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- لابدوس، ايرا

مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلي العربية على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.

- لوريمر

دلـــيل الخليج العربي، القسم التاريخي، طبعة جديدة ومنقحة، أعدها قسم الترجمة في مكتب سمو أمير قطر،(د.م)،(د.ت).

- لينبول، ستانلي

ســـيرة القاهـــرة، ترجمة حسن ابراهيم حسن، ادوار هليم، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، (د.ت).

- موير ، وليم

تـــاريخ دولـــة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

- نوغمو،شورا بكمرزا

موجز تاريخ الجركس، تعريب شوكت المفتي، مطبعة الأردن، عمان، ١٩٥٣م.

- هايد، ف

تـــاريخ الـــتجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج١+٤،عربه عن الترجمة الفرنســـية احمـــد رضـــا محمد رضا، مراجعة وتقديم عز الدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

- ويستنفلد، ف

جـــدول الســـنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وشـــهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، (د.ت).

خامساً: الرسائل الجامعية

- جبران، نعمان

مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨١م.

- حجة ، شوكت رمضان

الـــتاريخ السياســـي لمـــنطقة شـــرقي الأردن(من جنوب بلاد الشام) في عصر دولة المماليك الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٧م.

- خليل، سعيد صالح

الـــتجارة الداخلـــية فـــي دولة المماليك الثانية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢م.

- الشريدة، آمنة

الجـــيش فـــي بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك ١٩٩٣م.

- غرايبة، قيصر

الرقـــيق العســـكري فـــي المجـــتمع المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٧م.

سادساً: الدوريات العربية

- اسكندر، توفيق

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نظام المقايضة في تجارة مصر والعصور الوسطى، المجلة التاريخية، م٢، ١٩٥٧م.

- برغوث، عبد الودود يوسف

"**جوانب اجتماعية في تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر**"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، المجلد (٢٣)، ج١+٢، دمشق،١٩٧٣ م.

- رمضان، صالح محمود

"**الصـــراع البرتغالي في اليمن**"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٤٧)، السنة الثانية عشر، الكويت، ١٩٨٦م.

- عاشور، سعيد عبد الفتاح

"**بعـــض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة**"، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد (١٤)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٦٨م.

- عدرة، غادة المقدم

"**الستجارة والتـــبادل الـــتجاري بيـــن البندقية والمماليك**"، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدادان (٨٥، ٨٦)، بيروت، ١٩٨٥م.

- غوانمة، يوسف درويش

"**الطـــاعون والجفـــاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام والأردن وفلسطين**" مجلة دراسات تاريخية، العدوان (١٣، ١٤)، جامعة دمشق، ١٩٨٣م.

- متولي، أحمد فؤاد

"**الـــبحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي**" علـــى ضـــوء الوثـــائق التركـــية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد (٤)، الرياض، ١٩٨٠م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- محمود، حسن أحمد

"**التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب**"، المؤرخ العربي، مجلة تصدرها الأمانة العامة، العدد (١٢)، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٨٠م.

- مصطفى، شاكر

"**دولة الأتراك في بلاد الشام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام**"، ٢٠-٢٥ نيسان ١٩٧٤م، الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سابعاً: المقالات الأجنبية

- Ayalon, D,

  " Studieson the Structure of the mamluk army", B. S. O. A. S., vol. Xv, part (2), 1953, p (204- 220)

- Diffie, Baily

  Foundations of Portuguse Empire 1415 – 1580, University of minnesot. Apress, minn Polis, Vol. 1, P (1-16), (n,d).

- **Goydschmidt, Arthur**

  A Concise History of Middle East, Flokeskon, England, (n, d).

- Winter, Michel

  Egyptian Society Under Ottoman Rule 1517-1798, London and New York, (n, d).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الملخص باللغة العربية

هدفت هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على حقبة مهمة من التاريخ الإسلامي وهي الفترة الثانية من عصر دولة المماليك، ما بين (٩٠٦-٩٢٣هـ/ ١٥٠٠-١٥١٧م) وهي فترة السلطان الغوري، والتي لم تنل الكثير من الاهتمام الكافي من قبل الباحثين.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وقد تناولت المقدمة أهمية البحث ومنهج الدراسة.

أمـــا الفصل الأول فهو دراسة تمهيدية عن السلطان الغوري، بدءاً بنسبه وكنيته ومولده ونشأته، وظروف توليه السلطنة، ثم صفاته وثقافته وزوجاته وأولاده، ثم إنتهاءاً بميوله ومواهبه وألعابه.

وتناولت في الفصل الثاني الحديث عن الأحوال الداخلية في مصر وبلاد الشام في عهد قانصوه الغوري.

وجعلـــت الفصـــل الثالـــث للحديـــث عن علاقات المماليك مع الجزيرة العربية والقوى الإسلامية المحيطة بالدولة في عهد قانصوه الغوري، سواء كانت علاقات سياسية، وعسكرية، أو اقتصادية.

وفـــي الفصـــل الرابع تناولت الحديث عن علاقة المماليك مع القوى المسيحية في عهد قانصـــوه الغوري، فتحدثت عن علاقة المماليك مع كل من الحبشة، والبندقية، وفرنسا، والبابوية في روما، وأخيراً علاقة المماليك مع البرتغاليين.

أما الفصل الأخير فقد خصصته للحديث عن نهاية دولة المماليك، حيث تطرقت فيه إلى الظـــروف الداخلـــية في دولة المماليك التي سارعت على نهايتها، وأنهيته بالحديث عن دخول السلطان سليم الأول إلى القاهرة وسقوط دولة المماليك ونقل الخلافة إلى استنبول.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتبين لنا من الدراسة ما يلي:

١. ساهمت التعديلات التي أجريت على الإقطاع العسكري المملوكي في الخروج من الأزمة الاقتصادية التي مرت بالدولة.

٢. كثرة فتن أمراء المماليك وجلبانهم في فترة الغوري.

٣. الدور الإيجابي والسلمي للعربان اتجاه المماليك.

٤. لقد كان المجتمع المصري والشامي في عصر دولة المماليك الثانية، مجتمعاً طبقياً يتألف من فئات متعددة.

٥. تأكيد السلاطين المماليك على تبعية الحجاز للسلطنة المملوكية.

٦. تأرجح العلاقات المملوكية العثمانية، بين الود تارة والعداء تارة أخرى.

٧. تحول طرق التجارة العالمية، واكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، ووصولهم إلى الهند.

٨. تأثر المجتمع المصري والشامي بالأوبئة والمجاعات.

٩. تأكيد العثمانيين على إبقاء الخلافة العباسية لإضفاء الشرعية على حكمهم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ABSTRACT

The Sultan Kansau
AL-Ghori And The End of Mamluki State
(906 – 923, AH / 1500-1517, AD)

by

Hanady Za'al AL-Hindawy

Supervised by:

Prof. Dr :

Yousef Ghawanmeh

The present study has aimed at highlighting a significant period in the Islamic history which is the 2nd epoch of the state Mamluki (1500-1517) under the Sultan "Kansau", as the researchers have not paid much attention to it.

The study is divided into an introduction, five chapters, and a conclusion. The methodology and significance of the study were tackled in the introduction.

The first chapter consisted of a preliminary study on the Ghori Sultan starting from his belongings, surname, birth, and upbringing, how he took over, his attributes, culture, wife's, sons, inclinations, talents and games.

The second chapter dealt with the internal affairs in Egypt and the Levant during Kansau's rule.

The third chapter tackled the Mamluks' relationships with Arabia and with the Islamic forces around Kansau's Jurisdiction be they political, military or economic.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

The fourth chapter mooted the Mamluks' relationships with the Chiristian powers during Kansau's rule, and their relationships with ALHbsh, Venice, France, the poppery at Rome and with the Portuguese.

The last chapter has been dedicated to deal with the decline of the Mamluks and the internal circumstances that accelerated their decline. The chapter was concluded by dealing with the arrival of Sultan Selim I to Cairo, decline of the Mamluki state and transfer of the Islamic Caliphate to Istanbul.

The study has come up with the following findings :

1. The amendments made on the Mamluki military sector contributed to ridding the state of its economic crisis.
2. There were many disturbances of the Mamluki princes and Jilbans during the Ghori, Period.
3. There was a peaceful and positive role of Arabs towards the Mamluks.
4. The society in Egypt and the Levant during the Mamluki rule II was composed of various castes and classes.
5. Hidjaz had its sanctity, and the Mamluki Sultans asserted its subordination to their rule.
6. The Mamluki – Ottomani relationships were characterized by swinging between hostility and friendlines.
7. There was a transfer in the world trade route. The Portuguese came across the Cape of Good Hope and reached India.
8. The society in Egypt and the Levant was badly affected by epidemics and famines.
9. The Ottoman State insisted on maintainting and affirming the Abbasid Caliphate so as to legalize their rule.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University